



مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري



قصائد مختارة

للشاعر إبراهيم العريض



وقدم له

قام بالاختيار

د. ثريا العريض

منصور محمد سرحان

قصائد مختارة

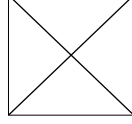
للشاعر إبراهيم العريض

قام بالاختيار

منصور محمد سرحان

وقدم له

د. ثريا العريض



أشرف على طباعة هذا الكتاب وراجعته الباحث
بمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

ماجد الحكواتي

الصف والإخراج والتنفيذ

محمد العلي

أحمد متولي أحمد جاسم

قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

حقوق الطبع محفوظة للمؤسسة



تلفون: 2430514 فاكس: 2455039 (00965)

E-mail < babtainprize@hotmail.com >

2 0 0 2

تصدير..

«الحياة في الشعر»

مع إبراهيم العريض وجيله من الشعراء الذين بدأت أصواتهم الشعرية تبرز في مطلع الثلاثينات من القرن الماضي يأخذ الشعر منحىً جديداً بعد فتح النوافذ لرياح العالم الثقافية وعواصفه، يتحرر الشعر من المناسبات التي كانت تثقل كاهله وتجعله خاضعاً للأعراف الاجتماعية والثقافية، ومن كونه حرفة ومهنة، ليصبح موقفاً من الذات والعالم، وهو ساء يتلبس نفس الشاعر، ويتغلغل في كيانه، لم يعد الشعر وثيقة لغوية فقط، ولا وثيقة تاريخية فقط، ولا وثيقة اجتماعية فقط، بل أصبح مرآة لنفس الشاعر أولاً في مواجهتها للعالم، أصبح صورة للحياة وقد تحولت إلى حلم، الحياة في أسرارها وجذورها لافي صورتها المألوفة والجهازية، ومن هنا تكتسب اللغة قيمتها ودورها، وبعد أن كان الشعر يقف خارج النفس ويستدعي عند الحاجة لأداء واجب اجتماعي وفق مقاييس معينة ويسير هادئاً مترناً نحو هدفه، أصبح الشعر حالة نفسية، وعاصفة تهدم في طريقها كل علامات الطريق، وتنطلق في رحاب جديدة قد تفاجئ الشاعر نفسه، أصبح الشعر هو الشاعر بعد أن كان الشعر رديفاً للشاعر.

عاش إبراهيم العريض طفولته وفتوته في الهند بعيداً عن لغته الأم وتراثه الشعري، وهناك تأسس وعيه الثقافي أولاً، ومن هذه المرحلة اكتسب إبراهيم انفتاحاً على ثقافات العالم، وحين استقر في وطنه بدأت رحلته مع اللغة العربية والتراث الأدبي القومي، وتمكن في فترة قصيرة أن يتجدر في اللغة والتراث وأن يسيطر على الأدوات اللازمة للقول الشعري.

وبهذا الانفتاح الذي عرفه إبراهيم على الآخر الثقافي، لم يكرر المشهد الشعري في البحرين بل حاول أن يتجاوزه ويؤسس لمستوى جديد وتحرير الشعر من رواسب الخطاب الشعري، يخرج بالشعر من عباءة التراث والنسج على منواله، أي من كونه حالة لغوية بيانية ويدخل إلى النفس البشرية بكل أغوارها وأحلامها وصبواتها،

ليصبح حالة إنسانية تقتنص اللغة المناسبة، وبذلك قلبت المعادلة الشعرية رأساً على عقب، وبعد أن كان تقف على رأسها أصبحت تقف على قدميها، اللغة والعبارة تخضع لأحوال النفس، ولا تُصَبُّ النفس في قوالب اللغة الجاهزة، وبذلك أحدث إبراهيم العريض وجيله انطلاقة في الروح الشعرية، وفي العبارة الشعرية، وكانوا تمهيداً لانطلاقة أوسع قام بها الجيل التالي لهم من الشعراء.

وظل إبراهيم العريض خلال ثمانية عقود يعيش للشعر وفي الشعر، وخلال هذه المدة الطويلة أخرج العديد من الدواوين والقصص والمسرحيات الشعرية، وقدم إضاءات نقدية مهمة للتراث الشعري، وحين قررت المؤسسة تكريم هذه النخلة الشعرية الشامخة (إبراهيم العريض) قبل وفاته بقليل فإنما كانت تكريم فيه، هذا الإخلاص لفن الشعر، وهذا الدأب الصبور على تسجيل الموقف الشجاع في محراب الشعر.

وإذا كان إبراهيم العريض قد غادرنا قبل أسابيع من حفل تكريمه، فإن ما خلفه لنا من إبداع يبقيه معنا على الدوام، وهذه المختارات الشعرية التي أخذت من مختلف المراحل التي مرَّ بها الشاعر ليست مجرد أقوال شعرية بل هي أقباس من روح الشاعر، وفلكذ من نفسه، وهي تجعلنا على الدوام نقدر المعاناة التي عاشها الشاعر لكي يمتع نفوسنا ويضيء لها مسالك الحياة الملتوية.

تحية للشاعر إبراهيم العريض في عالمه العلوي، ودعاء له من القلب بالرحمة والغفران.

والحمد لله من قبل ومن بعد،،

رئيس مجلس الأمناء

عبدالعزیز سعود الباطین

الكويت في ٧ من رجب ١٤٢٣ هـ.

الموافق ١٤ من سبتمبر ٢٠٠٢م.

شهادة في الأستاذ

شعرت بالكثير من التردد حين طلب مني الأستاذ عبد العزيز سعود الباطين أن أكتب دراسة تتصدر الكتاب الذي قررت « مؤسسة الباطين » إصداره بمناسبة الاحتفال بنيل الأستاذ إبراهيم العريض لجائزتها التكريمية.

و شعرت أيضاً بالكثير من الفخر.

رأيت في ذلك الطلب امتحاناً وشهادة لي شخصياً.

وهي شهادة تحملني الكثير من المسؤولية أمام مؤسسة الباطين وأمام القارئ وأمام محبي «الأستاذ» ...

والحق يقال هي شهادة تاريخية في رجل غير اعتيادي ولذلك تدخل في تصنيف المسؤولية الأدبية تجاهه وتجاه الحقيقة.

فالأستاذ عملاق في كل أبعاده و تفاصيله، كنت حظيظة أن عرفته عن قرب في أخص خصوصياته وحميمياته ، فتحت عيني على الدنيا لأجد حضوره شاهقاً حولي.

و لم يكن حضوره عابراً في حياتي بل متجذراً في كياني مادياً ومعنوياً.

رجلٌ شاركني طفولتي، فعانقني في بعض أحلامه، وبارك بعض طموحاتي الصغيرة، وسعد معي بتحقق بعضها.

رجلٌ كان يسميني في طفولتي شمعته، وفي صباي تميمته، وفي أيام تعذر حركته نافذته على عالم الأدب و تفاعلاته.

رجلٌ شاركني بعض ذكرياته الحميمة عن طفولته وصباه، وبعض أحلامه وبعض إحباطاته.

رجلٌ ظل يثيرني اتساع آفاقه الخاصة، ويذهلني ثراء مكونات عالمه الخاص، ويملؤني طمأنينة حبه للغير، ويملؤني فخراً إعجاب الآخرين به وحبهم له، ويضحكني عجز البعض عن فهم هذا الحب وهذا الإعجاب.

رجلٌ أعرفه جيداً..

رجلٌ أحببته كثيراً بكل خصوصياته و تفرده.

ومع المعرفة ازداد حبي واحترامي له، لأنه رجلٌ يستحق الحب والاحترام.

رجلٌ أجبرني تميزه أن أكون متحيزة له..

و أن أومن أنني على حق في هذا التحيز..

هكذا جاء قراري بقبول الطلب.

أشكر عبد العزيز البابطين على هذه الثقة التي أولاني إياها.

و لا بد أن أعتزف أنني وأنا أشرع في كتابة هذه الشهادة لا أعرف بعد كيف ستبدأ ولا كيف ستنتهي.

فالأستاذ هو الاسم الذي عرف به أبناء البحرين و الخليج إبراهيم العريض خلال عمر حافل بالعطاء امتد لسبعة عقود.

و«الأستاذ» هو أيضاً والدي ..

مما يضعني في موقف متعدد الضغوط.

و بقدر عمق علاقتي مع والدي، رحمه الله، وتعدد روافدها ومساراتها إلا أنني أجد نفسي عاجزة عن إجابة السؤال البسيط: ماذا أقول وهل سأستطيع أن أغطي المساحات المترامية الأطراف لعالم هذا الرجل الفذ ؟ .

ثم بعد هذا جاء إدراك ما هو أصعب..

تساؤلات ذاتية تولد الشك حول قدرة تحقيق ما طلب مني.

و عن مسؤوليتي أمام القارئ.

ليس من السهل، ومع توخي أقصى حد من الموضوعية والدقة، أن تكتب عن الغير مختزلاً إياه ومنجزاته في إطار الكلمات.

فكيف حين ذاك الغير هو قريب حميم، بل قريب غالٍ تود ألا تغمطه حقه في إضاعة منجزاته وتميزاته وإبرازها بأقصى ما تستطيع من الإخلاص و الصدق، مما يجعل الموضوعية التزاماً عسيراً؛ ألن تتضاعف خيانة الاختزال بخيانة تداخلات المعرفة الحميمة والعواطف الفردية؟

ثم .. حين ذاك الذي تكتب عنه ليس حالةً عادية يكفي فيها استعراض أفعاله، بل هو حالةٌ مميزة، وريادة مشهود لها على أكثر من جبهة، كيف ستقيم إنجازات من إنجازاته تأتي فوق مقاييسك للتقييم العام ؟

رجلٌ مثل إبراهيم العريض أصبح رمزاً من رموز التجديد والإضافة في الحركة الأدبية العربية خلال قرن من العطاء الفردي المتميز، ورمزاً من رموز التطوير المجتمعي.. كيف حقق ذلك ؟

كيف وهو يرفع لواء الدعوة إلى تجنيد الطاقات الذاتية في البناء لا الهدم.. والتحفيز، لا البكاء على الأطلال.. والتحليق إلى آفاق الريادة العلمية والثقافية، لا تثبيت النظرة على ما كان ؛ كيف استطاع أن يوصل رسالته تلك إلى مجال استيعاب مجتمعه؟ كيف لم ير في ذلك مهمة مستحيلة في بدايات القرن المنصرم حين كان المجتمع الخليجي لا يزال مجتمعاً يتوجس من المجددين، ويشكك في مرجعية المطالبين بالتفكير، ويحارب التغيير ويطالب رموزه بمثالية الوفاء للماضي إلى حد التحجر؟

ماذا أقول عن إبراهيم العريض المثقف العربي، بصفتي أحد نتاجات هذا القرن بكل تلاساته ؟ و كيف أرى دور إبراهيم العريض فيه؟

ماذا أقول عن إبراهيم العريض بصفتي امرأة عاشت هذه الفترة الملتبسة في عمر مجتمعنا العربي الخليجي المسلم متخبطاً بين راحة الجهل وتحديات التنوير و ادعاءات العرف، وصراعات التقييد والانعتاق.

وماذا أقول عن إبراهيم العريض بصفتي إحدى بناته وعن دوره في بنائي العاطفي والثقافي؟

و لو لم أكن ابنته بل مجرد إنسانة تقاطعت خطاها مع خطاه في دروب الحياة فماذا سأقول عن إبراهيم العريض الذي يعتز أصدقائه بصداقته، ومعارفه بمعرفته في محيطه الحميم والبعيد القصي؟ وعن إبراهيم العريض الذي ظل محتفظاً بصفاء روحه الطفولية ، ووفياً لكل من أحب ؟

و لو كنت مجرد متذوقة للإبداع، ماذا أقول عن إبراهيم العريض الفنان الذي أحب الموسيقى وعشق الرسم؟

ماذا أقول عن إبراهيم العريض الشاعر الذي لم تشغله قشور اللغة و قيود شكلياتها عن روح الشعر، حتى كتب الشعر بعدة لغات وأحسن في كل منها؟

و عن إبراهيم العريض الذي كتب المسرحية التاريخية والدرامية شعراً فأبدع في الحالتين؟

وعن إبراهيم العريض الناقد الذي لم يشدَّ اهتمامه غير إنجازات من بلغت شواردهم القمة وأثارت عواصف التساؤل والرفض مثل الخيام و المتنبي ؟

ثم .. ماذا عن ذلك الجانب منه الذي لا يقاس بعدد القصائد والدواوين منه، أو المطبوعات والأطروحات عنه ؟

ماذا سأقول عن إبراهيم العريض، الفنان الأعمق تواملاً مع آيات الخلق الرباني وروائع إلهامه للفن الإنساني؟

و عن إبراهيم العريض الإنسان الذي سبر وشائج الإنسانية، واحترم جوهره ؟
وعن إبراهيم العريض المثقف الذي عبر برازخ الحضارة الإنسانية؟
وعن إبراهيم العريض الذي فهم جوهر الإيمان بالله، والانتماء إلى الإسلام وتعاليمه؟
وعن إبراهيم العريض العربي المؤمن بالأمة والقومية؟
هل أستطيع أن أجمع هذا كله في كلمة أو دراسة محدودة؟
ثم.. هل أستطيع الالتزام بالموضوعية التي فرضتها على نفسي، وتجنب شراك
الانفعالية والميول الفردية و إغراءات التحيز لرجل أحبه؟
مؤسسة الباطين مؤسسة محترمة أحمل لها الكثير من التقدير لتميز مشاريعها الثقافية.
وأبو سعود رجلٌ له معزته واحترامه الخاص
والطلب منه غال ..
ثم هو طلب يختص بوالدي .. وأنا فتاة بأبيها معجبة.. فهل أستطيع أن أعتذر عن هذا الطلب؟
كان والدي يقول دائماً : « إن المبدع شاهد على عصره ».
وتلك المسؤولية؛ مسؤولية الشهادة على واقع العصر كانت تمثل له التزاماً غير هين.
ما كان يلقي الكلمات و لا يعلن الشهادات جزافاً.
وها أنا أتذكر ذلك وأنا أقف في موقف الشاهد ليس على العصر فقط بل وعلى الأستاذ.
ليس من السهل أن تكون موضع ثقة أن باستطاعتك الكتابة، وبأمانة، عن موضوع
شاسع الأطراف حول رجل له موقعه وأهميته في تاريخنا الثقافي والأدبي، وأن تكتب ما
يشد القارئ للمتابعة في خضم ما ازدحمت به الساحة من عروض وتغطيات لإنجازات
إبراهيم العريض.
موقف غير هين.

لستُ كاتبة محترفة بل عاشقة للكتابة. ولو طلب أبو سعود ناقداً محترفاً لوجد الكثيرين يتسابقون للاستجابة لطلبه، ولهم الفخر. نعم الطالب والموضوع.

قلتُ :

ألبي الطلب على أن يكون ما أقدم مادة ذاتية تستمد محتواها من ذاكرتي الشخصية وحواراتي مع الوالد على مدى العمر، وأن تكون انطباعية لا تستمد قيمتها من انتمائها إلى مدرسة تحليلية بعينها، وستكون بالتالي متفردة بين تلك المتوفرة أو المتوقعة من أي ناقد أدبي لشاعر أو مبدع، أو أي رصد سابق تم عن إنجازات والدي شعراً أو نثراً.

شعلة الإبداع وشموع التذوق:

لنضع الأمور في نصابها الصحيح ..

لست ناقدة أدبية بل متذوقة للفن والأدب.

ولست هنا لأقيم شعر « الأستاذ » بل الأقرب أنني أرسم معالم تأثيره في حياتي بما في ذلك بنائي الأدبي وذائقتي في الفن والإبداع . فمنه جاءت منابع روافدي الأولى. ولا أشك أن رؤيته العميقة والشمولية لما هو الفن وما هو الإبداع وما هي الريادة شكلت نظرتي إلى هذه الأبعاد. كما لا أشك أن نظرتي المتحضرة إلى المرأة وإيمانه بقدرتها شكلت في النهاية كل ما أنا اليوم.

ولقد بدأت رحلة التذوق هذه، طفلة تتشبث بكف والدها وهو يصطحبها معه في مشاويره حين يلتقي بأصحابه ورفاقه من الأدباء والمثقفين داخل البلاد أو في أسفاره في الخارج، وتنصت صامته لحواره معهم . وكم كانت محاورات غنية ومثرية حول ما يعنيه الإبداع والفن. تلك كانت مؤشرات أضأت لي كصبية درب تقدير الإبداع وتذوق الفن.

تعلمت من الإصغاء لتلك المناقشات كل ما أعرفه عن عالم الإبداع :

أن الفن الصادق يحمل رسالة هي جزء لا يتجزأ منه ..

وأن الإبداع الحقيقي يفرض نفسه دون لجوء للمقويات والمبررات الداعمة..

وأن أهم امتحان هو امتحان الزمن.

وامتحان الزمن يفرض قدرة عبور المتغيرات المرحلية والبقاء على تواصل حيوي مع احتياجات المرحلة.

أي أن الفنان الحقيقي لا تموت قدرته على الإبداع لأنه في تواصل مستمر مع تطور الوجود من حوله منذ الأزل وحتى الأبد.

ربما صقل ذائقتي فيما بعد عبوري في تطورات القصيدة العربية من مرحلة سيادة العمود الخليلي إلى مرحلة كفاح قصيدة النثر للتجذر بالرغم من أعاصير رياح الرفض المجتمعي.

ولكن ذلك لا يرفعني من مستوى التذوق تقبلاً أو رفضاً إلى مستوى إلقاء الأحكام بأفضلية هذا أو تلك.

الآن، كشاهدة، أستطيع أن أقول إن «الأستاذ» في فنه ورؤيته للإبداع تأخى مع استمرارية الوجود ومتغيرات الزمن، ولم يخضع لعوامل الركود حتى في آخر أيامه.

عملاق في أرجوحة الظلال :

اكتشفتُ ذات يوم طفولي أن ذلك الرجل العملاق - الذي يعيش معنا في البيت، وتطالبنا أمي بالهدوء والتوقف عن العبث والشقاوة حالما يدخل المنزل - ، يغمغم بهمهمات موسيقية حين يكتب .

سألتُ أمي عن ذلك..

سألتها إن كان يغني بصوت منخفض فضحكت وهي تجيب « لا ».

وأضافت بصوت يحمل الكثير من الفخر أنه يكتب «الشعر». لكنها لا تستطيع أن تعرف لي ما هو « الشعر ».

أمي نفسها كانت تدندن بالأغنيات الخليجية وهي تؤدي أعمال المنزل، وكان لها صوت جميل وضحكة أجمل تذكرني برنين أجراس موسيقية، ولكنها لم تكن تعرف إجابات كل الأسئلة التي كونت أراجيح طفولتي .

هو كان لا يعرف الإجابات كلها فقط بل ويشاركني متعة الوصول إليها .

الآن ربما لو اختصرت ملايين التفاصيل في ذاكرتي عن والدي لرسمته طفلاً عملاقاً في أرجوحة التأمل بين اللغة والفكر ينسق بينهما بإيقاع عاطفي ليأتي الناتج فناً خالصاً . أو ربما اختزلته إلى روح شاعر وأنامل فنان تعود قصائده لوحات ملونة مضيئة بحيوية الوجود في عالم شاسع التفاعلات .

كانت اللغة، أي لغة يقاربها، خامة فنية غنية يصوغ منها تلك اللوحات . وكانت المشاعر والإنجازات الإنسانية محور اهتمامه سواء كان ذلك الإنجاز فناً مرئياً أو مسموعاً أو فكرياً علمياً .

ولست في تصوري هذا بعيدة عن حقيقته الجذرية أو أشط في الخيال فهو فنان ورسام فعلاً .. بدأ في طفولته بالرسم وأبدع فيه حتى نال الرتبة الأولى على دفعته في القارة الهندية كلها . ثم تحول عن الرسم إلى الشعر فأصبح يرسم بالكلمات .

بل ويتقن عدة لغات تعرف إليها قبل أن يعود إلى لغته الأم ليتعلمها وهو صبي يافع .

وقد ورثنا عنه أنا وأخي وأخواتي هذا الميل للرسم واللغة .

أما لماذا كان يدرس في الهند وهو العربي من الخليج أصلاً وفرعاً فهي حكاية سأعود إلى تفاصيلها في ما بعد .

ربما كان وجود ظل أبي شامخاً في كل موقع أجد نفسي فيه هو أول وعي لي بانتمائي العائلي بعد حنان أمي ورقة الوجود الأخوي لشقيقتي كرفيف أجنحة فراشات في سرب . أما ظل أبي فكان شيئاً آخر له إحساس الصلابة والثقة ويحمل معه الطمأنينة والأمن وشعور غامض بالعز والافتخار .

فتحت عيني على سؤال يتكرر أينما ذهبت حالما يعلمون أن اسمي العائلي هو العريض :
هل تقربين للشاعر إبراهيم العريض؟

ولم أكن في البداية أعرف ماذا تعني كلمة « الشاعر » ولكني كنت أعرف اسم أبي
فأرد بالإيجاب. وأستغرب بيني وبين نفسي لماذا يسألونني عن أبي ولا يسألون رفيقاتي
عن أقربائهن.

كان أول ما نشره والدي من الشعر العربي ديوان « الذكرى » عام ١٩٣١ وتلاه «وا معتصماه»
و« بين الدولتين » وهما مسرحيتان شعريتان بمواضيع تاريخية كتبهما ليمثلهما على المسرح
طلاب مدرسته الخاصة كجزء من المنهج الدراسي المتطور الذي اختاره للمدرسة.

وقد أسف فيما بعد على التسرع في نشره ديوان « الذكرى » حيث لم ير قصائده
ارتقت إلى مستوى يؤهلها للنشر.

هكذا منذ البدء كان الشاعر والناقد يتعايشان في إبراهيم العريض وكان كناقد مثله
كمعلم شديد التدقيق لا يتقبل الخطأ أو الضعف.

ولم يكن يجامل في تقييمه أحداً وربما ذلك ما أخافني من النشر، فظلمت أحتفظ
بشعري لإطلاع صديقاتي الحميمات فقط، هذا ما نصحني ألا أتعجل النشر لكي لا أندم
على قرار متسرع يستبق نضج التجربة، وهي نصيحة شكرته عليها كثيراً حين وعيت
أبعادها لاحقاً.

وظل دائماً مصراً على حسن الإنجاز لا جني الثمار الفجة.

بعد « الذكرى » تتابعت مجموعاته الشعرية : « العرائس » ٤٦ و« قبلتان » ٥٠ بم و« أرض
الشهداء » ٥٢ و« شموع » ٥٦ وآخرها « يا أنت » ٩٨. وله أيضاً ترجمة الخيام وديوان باللغة
الأردية « جالبهاري » وقصائد باللغة الإنجليزية. أما طروحاته النقدية فأهمها دراسته
المتعمقة عن المتنبي « المتنبي بعد ألف عام »، و« اللمسات الفنية لدى الخيام » ثم دراسته
المقارنة لترجمات الخيام . كما أذكر دراساته للشعر الحديث وربما كان أهمها « كلمة أن
لها أن تقال » التي تناول فيها حركة الحداثة الشعرية وقصيدة النثر .

أبي من شعراء القصيدة العمودية، وقد ظل وفيماً لها، وإن كانت له في قصائده بصمته الخاصة التي تفرد بها شعره عن مجاليه ومن سبقوه. ولم يمنعه ذلك من تذوق الأجناس والأساليب الأخرى للشعر، فقد تعدى مستوى تقبل ما يجد هو نفسه راحته فيه إلى مستوى أرقى يتقبل أي فن مميز أينما جاء . وقد مررت ببعض ما عايشه أبي من تطورات الشعر العربي الحديث من منعطف المهجريين حتى تأثيرات «تي أس إليوت» بعد تحدي نازك الملائكة للعمود الشعري المعتمد، وتجديدات بدر شاكر السياب، وانتقلت إلى مرحلة الانبهار بنزار قباني وظهور شعر المقاومة، وتوجعات أمل دنقل وتفرد محمود درويش.

وقد ظل لوالدي منذ البداية اطلاع على الشعراء المجددين وإبداعاتهم، وعلى اتصال مباشر بل وصداقة شخصية مع كثيرين منهم، وصل بعضهم إلى التميز بصيغهم الخاصة منهم: نازك الملائكة، وبلند الحيدري، ونزار قباني، لا بسبيل الحصر بل مثلاً فقط.

وقد كنت في البداية أقرب إلى تذوق الشعر مني إلى تفهم رؤيته النقدية وطروحاته حول الشعر وعلاقته باللغة التعبيرية والفن بشكل عام. وقد حفظت بعض قصائده عن ظهر قلب على الرغم من طولها. وأستطيع الآن أن أرسم صورة لتطور التعبير الفني عنده، وهو تطور ظل وفيماً لإيمانه الجذري أن الفن لا يأتي افتعالاً شكلياً ولا انشغالاً بالصنعة بل هو دائماً تعبير صادق عن الحياة واحتفاء بها .

وأنا كشاعرة أنتمي إلى جيل غير جيل أبي، ولكنني تعلمت منه الحوار مع كل الأجيال، إلا التي لا تحاور إلا من منطلق ترسيخ نفسها وإلغاء الآخرين .. أو تلك التي تعيش حالة هذيان منغلق على ذات منحصرة الأفق والوجود.

وأقول إنني تعلمت منه تقبل التطورات الأسلوبية والتعددية في الصيغ المفضلة من هذا الشاعر أو ذاك. ابتدأت معرفتي بالشعر باللغة الشفاهية للشعر وتأثرت كثيراً بقراءة القرآن الكريم مؤسسة جذوري اللغوية ، ثم بما قدمته لي في الطفولة الأولى تلك الدواوين العالمية التي اكتشفت فضوليتي الطفولية عشرات منها، في مكتبة أبي الشاسعة.

ذائقتي في الشعر العربي نبتت مع القصيدة العمودية الموزونة، وتعلمت تذوقه مع البلاغة التقليدية في المعلقات العصماء: حكم زهير بن أبي سلمى، وتفاحرات طرفة وعنترة،

وطموحات المتنبي، وأشواق ابن زيدون. ولكني أنتمي بالطبيعة روحياً إلى عصر لاحق، وتعبيراً إلى الإيقاع التفعيلي الحر. وبعد تأثري ذاتياً بالمهجرين والشواعر جاءت وقفات انبهار مراهقي مع نسائيات نزار المتمرده، ووقفات تأملية طويلة مع كوابيس بلند الحيدري، وحسب الشيخ جعفر، وتغريبات البياتي وحجازي، ومحمد عفيفي مطر، ويمنيات البردوني ومحمد عبده غانم، ثم.. وقفات أطول في حيرتي مع تغرب أدونيس وعلاقته الملتبسة بالجدور، وذوباني أمام محمود درويش وهو يبلور فناً أدبياً لغوياً مؤثراً يخرج به جراحات الأمة من حصاراتها السياسية الحضارية منقوشة بنزيفه الذاتي في حصاره جغرافياً.. دون أن ينغزل في برج عاجي بعيداً عن فهم أو ذائقة أو مواجع القارئ.

وجدتني في معاشتي لوالدي في عالم الشعر والفن والأدب أدخل في متاهة طويلة متعددة الالتفافات أبحث عن إجابات لتساؤلات أزلية ربما، عن موقع الفن والإبداع من جراحاتنا الخاصة والعامة وطموحاتنا لتدجين اللغة والأسلوب في خدمة تفاعلاتنا الفردية بدلاً من الخضوع لضغوط الجدور الموروثة لتدجين المبدع فينا وتهجينه لئلا ينطلق بعيداً عن سيطرة الموروث.. ثم تساؤلات التوازن المطلوب في المبدع بين تشوقه للوقوف تحت شلالات البريق الملمعة له وبين الصدق مع ذاته ومثيرات إبداعه، والتوازن المطلوب بين تطرفين: الصنعة المفتعلة، والابتدال.. وكلاهما مرفوض من الذائقة السليمة ولكنهما يفرضان إغراءاتهما على المبدع الضعيف أمام شهوة البروز والاشتهار.

كل ذلك يجعل الفن والإبداع بصعوبة الرقص على حبل دقيق مشدود فوق هُوتين ما أسهل السقوط إلى هذه أوتلك منهما .

ثم أين من هذا كله موقع ما قرأته في مكتبة والدي أيضاً من ترجمات أشعار مبدعين عالميين تتفاوت الخلفيات والبيئات الحضارية والتاريخية واللغوية التي نشأوا وأبدعوا فيها. مبدعين مثل: طاغور، وبودلير، وشيلي، وبايرون، وسنغور، وناظم حكمت، وسافو، وإليزابث براوننج؟

هل الفن والنظرة المفضلة لصيغة خاصة ناتج بيئة بعينها؟

هل الشعر موروث لغة بعينها؟ أم حضارة بمواصفاتها؟

أم هو موهبة فردية تتأثر بهذا وهذا وأي أفق إنساني ننفث على متراكماته؟

وقفات وتساؤلات استدعت حوارات طويلة مع والدي نتناول فيها جوهر الإبداع وعلاقة الشكل النهائي بالإطار التاريخي والحضاري ومؤثرات البيئة والعصر، وما تفرزه تفردات شخصية المبدع ذاته في الصيغة النهائية للغة الفنية المختارة .

وأعترف أنني لم أتوقف بفكر ناضج الوعي أمام شعر والدي لأتأمل خصوصياته الأسلوبية والفنية في هذه المعمة العربية والروافد العالمية، بل اكتفيت بلذة الاستمتاع بمباهجه، ربما لأنني تعرفت إلى قصائده مثل: « التمثال الحي»، و« حديث دمية» في مرحلة شغفي الطفولي بالجانب القصصي فيها أكثر مما هو اهتمام متأمل للجانب الأسلوبي والصورة والصياغة الشعرية.

كنت إن منذ البداية من أولئك المحتفين عفويًا بالإبداع الشعري بالذات .. وحين كنت أسترجع عن ظهر قلب قصيدة إيليا أبي ماضي « الطلاسم » الملحمية الطول أو قصيدة والدي «التمثال الحي» بأبياتها المشاركة على المائة ، ودون دافع خارجي يفرض علي ذلك كأن تكون جزءاً من واجب النصوص المطلوب حفظها في برنامج الدراسة ، كنت أمارس الانفعال العفوي بالشعر كظاهرة يومية في حياتي.

أدرك الآن أن تذوقي للشعر لم يأت من عينات النصوص التي طولبت بأن أحفظها عن ظهر قلب في مقررات مادة النصوص والمحفوظات بالمدرسة الابتدائية متغنية بالفراشة اللطيفة ، والمرضة الظريفة، بل جاء من انطلاق خيالي مشرعاً أجنحته مطلقاً مع القصائد القصصية وللصور التي يرسمها والذي مشرعاً مسرحاً يحمل لي الحياة بكل نزعاتها الإنسانية المعقدة.

الآن أعني أن شعره كان يحمل من الثراء الفني ما رفعه فوق مستوى إدراكي البسيط المباشر، وأن أبعاد تأثيراته في – رغم أنها لم تكن بذلك الوضوح لي كمتلقية آنذاك – كانت في الحقيقة أبعد وأعمق تأثيراً في القارئ الواعي لتلك الروافد والمقدر للعمق الإنساني والموروث الحضاري العالمي فيها . وربما كان ذلك لأن شعره جاء بلغة عربية واضحة

البلاغة، ولكن منطلقاً من انتماء لجذور ثقافية أوسع من حدود عالمنا العربي جغرافياً وتاريخياً، متيحاً له أن ينفرد خارج كل هذا التزامم والانحصار طائراً يغرد ويحلق بإيقاع أجنحة سرب بعيد جداً يحمله هو في الذاكرة ولا نعرف له نحن مرجعاً محلياً.

وعن هذه الناحية يقول الأستاذ حسن جواد الجشي الذي كان صديقاً وزميلاً للوالد منذ البدايات الأولى :

« أصدر العريض ديوانه الأول (الذكرى) في عام ١٩٣١، ورغم أنه يمثل مرحلة المحاولة والبداية الشعرية لشاعر ناشئ بما تنطوي عليه هذه البداية من وهن في الصياغة وضيق في الرؤية والخيال أحياناً، إلا أنه كان بدون شك انطلاقة جديدة رائدة في أدب الخليج بمنحاه وموضوعاته غير التقليدية المتأثرة بشعراء الرومانسية في أدب اللغة الإنجليزية، تلك اللغة التي يتقنها العريض كما يتقنها أعرق أبنائها ثقافة واطلاعاً. وكان المفروض أن يحدث هذا الديوان صدها بين شعراء الخليج فتتسع الدوائر حوله ولكنه كما يبدو ألقى في بركة راكدة. ولم يكن هو من الثقل بحيث يستطيع أن يحرك سطحها، على أقل تقدير. ولعل ذلك يرجع إلى أن الذوق الأدبي السائد في الخليج آنئذ كان ما يزال أسير المفاهيم الكلاسيكية التقليدية في تقييم الشعر، فكانت الرصانة والجزالة أو الظرف والرقعة هي المعايير التي يوزن بها الأثر فيقبل أو يرفض. ولم يكن حظ « الذكرى » من ذلك كبيراً. فإذا أضفنا إلى ذلك أن الجزء الأكبر من الديوان رغم سذاجته كان هياماً بالطبيعة وغناء بمفاتها مما لم يألّفه الذوق البدوي ، أدركنا سر الجفاء بين الديوان وقراء الشعر في الخليج حينذاك.»

وأقول: لم يكن شعره بسيطاً شعبي الجذور والهوية ليحرك الإحساس بالطرب لدى الغالبية بقدر ما كان شعراً للمثقف المتواصل مع التراكم الحضاري العالمي . كان شعراً عميق الإحياءات غنياً بالرموز والصور خارج إطار محيطه المباشر قادراً على تحريك ذائقة التأمل والتفكير.

ثم في تأملي لاحقاً لشعره بمنطلق حديث التركيز يدقق في المفردات المستخدمة وتفصيلها، أجد أنه كان يميل إلى اختيار المفردات التي تدفع القارئ إلى إيقاظ مرجعية

حواسه الخمس كلها واستخدامها في التواصل، يبني انفعاله بما يقرأ فيعبر من المفردات المنتقاة بتخير عفوي إلى مستوى التذوق الحسي، وكأنه يقود سامع شعره ليقف أمام لوحة مرئية مثل وصف الطفلة وهي تنام محتضنة دميته في قصيدته « حديث دمية » ، أو حتى مجسمة ثلاثية الأبعاد كوصف الشباب يتلصصون على الغادة الحسناء تغسل شعرها في البستان، فيكاد القارئ يتلمس نعومة شعرها وبرودة ماء العين ويرى لمعان الماء في العين.

فمثلاً في قصيدة « التمثال الحي » حين يصور انفعالات الفنان الذي ينحت تمثال الحسناء المتصورة يوغل في نحت التفاصيل الدقيقة للمشهد ، فتكاد تسمع طرقات الإزميل وترى لمعة العرق على جبين الفنان، وتحس بضوء الفجر يتسرب مع ارتفاع صوت الديك في الخارج..

وأشير هنا إلى ميزة أخرى تفرد بها شعره هي توخي دقة التخير في استخدام النبرة الشعرية الموائمة للحالة النفسية. وقد ذكرت لي الباحثة الدكتورة سلمى الخضراء الجبوسي شخصياً في لقاء تم بيننا في مدينة كمبردج بالولايات المتحدة حيث تقيم، أنها كانت أول من رصد ذلك في شعره وأنها أشارت إلى هذه الناحية في تناولها لخصوصيات شعر إبراهيم العريض، فذكرت هذه الميزة وشواهد لها.

وسواء جاء ذلك بوعي منه أو بصورة عفوية فقد أضاف بعداً نفسياً إلى جو القصيدة يشبه ما تفعله المؤثرات الخلفية الصوتية والإنارة في الإخراج السينمائي لتؤثر في تفاعل المشاهد مع المشهد.. ولعل كون الميل للجانب العلمي في الوالد لا يقل قوة عن الميل للجانب الفني هو ما أدخل هذه الخصوصية في شعره.

وحيث كانت العلاقات الرياضية وما يبني عليها من استنتاجات ونتائج تشده كثيراً فقد توصل إلى أن هناك مشتركاً في الخصوصية بين عالم الأرقام والرياضيات، وعالم الفن والشعر بتردداته المنتظمة، حيث الانتظام والتكرار وتردد النغمات المختلفة وجمعها في تنويعات مختلفة تتكرر بانتظام يوصل بالنتيجة إلى صيغة فنية في لوحة خامتها الأنوار والظلال، أوقصيدة خامتها الكلمات وإيقاعاتها، أو نص موسيقي خامته النغمات الموسيقية.

من هنا ربما جاء ذلك التعبير الآخر الذي كرره أيضاً مراراً: أن طبيعة الوجود هي الانتظام. وإذا كنا، أو بعضنا، لا نستطيع إدراك قواعد انتظامه فلأننا لم نستوعبها بعد. وإذا كان هناك ما يبدو وكأنه فوضى ظاهرية فهو الحالة العابرة ولا بد أن يعود الوضع إلى الانتظام في إيقاع ما. والتجديد أو الخروج عن الإيقاع لا يكون بالتراجع إلى حالة التوقف ولا إلى حالة الفوضى بل إلى إيقاع جديد هو الأفضل من حيث توائمه مع الإطار الزمني والنفسي للتعبير الفني.

لغات حوار النجوم:

أتصور أنني أدركت منذ البدء وبصورة بديهية أن أبي يختلف عن الآخرين ممن أعرفهم من الرجال في محيطنا المحلي.

كان فارح الطول عريض المنكبين هادئ الصوت، لا يرفعه إلا حين يغضب، ويتكلم عدة لغات، كثيراً ما سمعته يتحاور مع أصدقائه من الجاليات الأجنبية في البحرين ويلغاتهم الأم. لا أفهم منها إلا العربية التي كان يصر أن أنطقها وأقرأها بصورة صحيحة حتى قبل أن أبلغ الخامسة. تعلمت القراءة مبكراً، قبيل الخامسة من عمري.. ربما لأن بيتنا المتواضع كان يفيض بالكتب في كل زواياه والقراءة فيه فعل يمارسه الجميع. وكان والدي معلمي الأول للغة العربية والرياضيات ثم.. ثم ابتداءً بتعليمي اللغة الإنجليزية في سن العاشرة.

ومثلما كان وهو يعلم شقيقتي قبلي، كان لا يتسامح في أخطاء اللغة حتى مع الأطفال، حتى كدت أعلن التمرد وأرفض مواصلة الدراسة معه لولا تدخل أُمي وشقيقتي الكبرى التي أقنعتني أن تشدده معي وعدم تهاونه مع أخطائي هودليل حب واهتمام بتعليمي، فخضعت مخفية متعتي بتلك الدروس رغم اعتراضي على حدة المدرس.

والذي معلم بالسليقة ولكنه كان شديداً لا يتحمل البلادة ولا يطبق ببطء الفهم أو تكرار الخطأ. وقد سمعت فيما بعد من طلبة الوالد الذين التحقوا بالمدرسة الأهلية الخاصة التي أسسها في شبابه أنه كان شديداً معهم لا يقبل في التطبيق الصحيح للعلم انحرافاً أو تساهلاً. وقد كان العقاب جاداً بقدر ما كانت رغبة التعليم جادة.

كان الرجل الشامخ الحضور يثير اهتمامي الطفولي، أرقبه عن كثب متشربة تفاصيل حضوره في حياتنا اليومية: حين ينصرف مبكراً إلى عمله مبادراً سائق سيارة الشركة البسيط بدعابة مرحة لتنفرج أسارير « غلوم» عن ابتسامة شاكرة ، وحين يعود الرابعة عصراً ليدخن الأرجيلة، وحين يتأكد شخصياً من أننا كلنا أخذنا جرعتنا الوقائية من زيت السمك والفيتامينات ، وحين يوزع علينا عند المغرب بعد عودته من مشواره اليومي عصراً ما اشتراه لنا من الخبز القريب من حلويات وكعك ساخن . وفي يوم الخميس بالذات كان احتفال أسبوعي للجميع إذ يعود من السوق يحمل رزمة المجلات الأدبية التي عودنا على توفيرها لنا بانتظام من مكتبة « الهلال» .

وكم كان يسعدنا تلهفنا على قراءتها والنقاش حول ما جاء فيها .

كان متفهماً جداً لمشكلة الفراغ الذي يواجه الصغار- والفتيات بالذات- في مجتمع لا يوفر نشاطاً ثقافياً خارج جلسات الطرب البدائي والاحتفالات الدينية . ولذلك كان حريصاً على أن يوفر لنا احتياجات أي هواية نبدى اهتماماً بها كالرسم الذي شغفت به في سنواتي الأولى. أحياناً أثناء الإجازة الصيفية كان يصطحبني معه إلى مقر عمله في شركة النفط ويسمح لي أن أرسم على أوراقه أو أجرب الآلة الكاتبة أو أخرج إلى الحديقة العامة المجاورة لأتسلى بمراقبة النباتات والطيور.

كان كثير السفر في تأدية متطلبات واجبات وظيفته لاحقاً في شركة النفط ، ولذلك كنت أفتقد وجوده حين يغيب لأيام متوالية وأحياناً لأكثر من شهر .. ولكن في حضوره كان التعويض مضاعفاً

وكان يحرص حين يسافر أن يبقى على اتصال بنا وأن يبلغنا لنسمع المقابلات الإذاعية التي تجريها معه إذاعة «هنا لندن» فنتجمع وقتها عند الجهاز قبل الموعد وكأن صوته عن بعد نبع ارتواء يعيد لنا قدرة الانتظار حتى يعود.

وحين يعود يكون الفرحة مضاعفاً إذ يعود محملاً بالهدايا ..

كان والدي حيويماً جداً في علاقته بنا من حيث أشبعنا تواصلًا عاطفياً وإثراء معرفياً يلاعبنا ويستثير نمونا الذهني ..

وكان منظماً جداً في إدارة حياته يطالبنا باحترام رغبته في الانصراف إلى أوراقه حين يشاء، ثم علمنا أن نستمتع بوجودنا معاً في أي وقت آخر.

وهكذا نظم مسيرة علاقاتنا وتفاعلاتنا معاً ..

كانت الليالي هي الأجل إذ تحمل لنا سويغات تواصل حميم معه يتداخل فيها دوره كأب بدوره كفنن عاشق للكلمات. في الشتاء نلتف حول المدفأة ملتحمين بالأغطية الصوفية نصغي له يروي لنا الأساطير العالمية والقصص وحين يغيب تنوب عنه أمي بحكايات وسوالف الخليج.

وفي قيظ الصيف، حين ننتقل للمبيت فوق سطح البيت تحت وميض نجوم السماء يستدعيها لمشاركتنا سهراتنا فيأخذنا معه في رحلات مثيرة للخيال وهو يحكي لنا أساطير الميثولوجيا اليونانية عن مغامرات الأبطال الذين تحولوا لنجوم تدور في صفحة السماء أبداً في تكوينات الأبراج مشيراً إلى تشكيلاتها في السماء.

تلك السهرات عرفتني على عالم النسر الطائر والنسر الواقع والمرأة المسلسلة كسيوبيا وأندروميديا والجبار وسيفيوس والثريا وسهيل . وهكذا أورثني عشقه للنجوم وتجاوباً مع وميضها الغامض. وما زلت أميز هذه التشكيلات السماوية حتى الآن وأتذكر تلك الليالي الخليجية السعيدة.

ولم أعرف إلا فيما بعد أن اهتمامه بالنجوم كان علمياً وأنه كان متعمقاً في علم الفلك حتى اخترع معادلة حسابية فلكية مسجلة باسمه.

وأرى الآن أنه في تلك السهرات الممتعة أشرع شرفات الأفق الوجودي الأكبر أمامنا فعلمنا احترام إبداع الله في كل مكان وبأي صورة جاء، مثلما قدر في تفاعلاته الأخرى معنا أن يستثير اهتمامنا بظواهر الإبداع الأخرى. كان اهتمامه شديداً أن نحتمي بالفنون المختلفة تشكيلية وتعبيرية في أي موقع جغرافي، ويصر أن يأخذنا في زيارات تنقيفية مطولة للمتاحف التاريخية والطبيعية والفنية في كل بلد نزوره

كان فعلاً معلماً قادراً على تقديم الحقائق الطبيعية، حتى العلمية الجافة منها، في صيغة شاعرية الرؤيئة قابلة لاستثارة التفكير والمتعة الذهنية. هكذا أورتنا استمتاعه بتفهم العلوم والمعادلات الرياضية، وكان حقاً عاشقاً للحقائق في مجال الرياضيات والحساب.

ولكنه أيضاً علمنا ما هو أهم : تقبل مبدأ شمولية الوجود. علمنا تعددية المشارب وموسوعية الاهتمامات، وحفر فينا إيمانه الذاتي أن تفهم الوجود وملامسة أبعاده ومعانيه في الحياة لا يأتي إلا من منطلق رؤية جوانبه وتفاصيله بكامل تداخلاتها وتقبلها بشمولية تكاملها كحقائق علمية وتفاعلات إبداعية تعبيرية؛ وأن اختلاف التفاصيل البشرية المجتمعية لا يعني انتفاء المشترك الوجودي والموروث الإنساني الذي يجمع البشرية كلها من حيث هم خلق الله.

وفي حياتنا الخاصة كانت خلطة أصدقائه ومعارفه تشمل أفراداً من كل الجاليات واللغات والملاحم ولم يكن غريباً علينا أن نسمعه يتحاور مع أصدقائه بلغات متعددة وكأنها كلها لغته الأم.

وحين علمنا تقبل التعددية كان يعيش معنا ما عرف فيما بعد بعقلية ما بعد الحداثة في حين يحيط بنا عالم التفاعلات المعتادة في فترة البدائية الحضارية.

ولكن الذي كان يثير اهتمامي بصفة خاصة، هو ارتباطه الحميم بالكتب والقراءة. وكتبه أيضاً كانت تأتي بلغات متعددة، وتشدني رموزها المكتوبة حروفاً غريبة غير تلك التي أتعلمها في المدرسة.

ربما كان أكبر ما احتواه بيتنا المتواضع هو مكتبة والدي التي تجاوزت محتوياتها آلاف الكتب بلغات متعددة، واحتلت كل زوايا البيت فيما عدا المطبخ، بل وعودنا أن تكون لكل منا مكتبتها الصغيرة، ركن خاص بها يحوي كتبها.

لا أذكر أبي إلا وفي يده كتب أو أوراق يكتب فيها، وكانت أمي تمنعني وأخواتي من إزعاجه حين ينصرف إلى أوراقه، ولكنه كان يجد الوقت لنا ومتابعة نمونا جسدياً وعلمياً.. وما شعرت أبداً أننا خارج عالم اهتمامه الشخصي.

ولم يكن يسمح لأحد منا بالعبث بكتبه أو الشخبطة على كتبنا الخاصة، وإن كان يشجعنا على القراءة ويحرص على إمدادنا بالجديد من المطبوعات المتوفرة من مطبوعات الأطفال في الصغر كمجلة « الطالب » و« السندباد » في عنفوانها الأول، حتى ترجمات الروايات العالمية مثل « روايات الهلال » و« مطبوعات كتابي » في الصبا .

كان يقرأ دائماً وإلى ساعة متأخرة من الليل، ويشجعنا أن نمارس القراءة مثله بشغف وعشق.

وربما أفسر ذلك الاهتمام الشديد بالقراءة أنه في طفولته وجد في عالم الكتب ملجأه من شعوره بالغربة، وكان يهرب من وحدته إلى حيث تفتح له المؤلفات عواملها السحرية ليجد مسرحاً واسعاً للانتماء والنشاط الذهني ينسى فيه حصار الواقع.

وفي حين ظل الإحساس بالغربة معاناته الأولى، ظل الكتاب رفيقه الحميم حتى تعسرت عليه القراءة حين ضعف بصره مع تقدم العمر.

ولنترك تفاصيل ذلك الى حين..

الإبداع الحي والريادة البانية:

تأثير جوهري آخر وعيته مؤخراً في غمرة التحديق بذكريات علاقتي مع والدي في إطار شمولي ، إذ توقفت عند التساؤل :

من أين جاني هذا الإيمان أن الإبداع الحقيقي غير قابل للركود أو الانحصار في مخزون الموروث بصورته السائدة أو التجمد في الذاكرة العامة؟ وأن الدور الأهم للمبدع هو البناء لا الهدم والتواصل مع المستقبل لا التشبث بالماضي فقط؟ وأن له دور الريادة في بناء المستقبل العام قبل أن يكون تركيزه على بناء المستقبل الخاص ؟

ومن أين جاني هذا الاقتناع أن المبدع الحقيقي لا بد أن يقف موقف الفرد غير المستسلم للتدجين والقولبة؟

وأين من هذا ما يتطلبه الانتماء من مشترك يصبح مرجع تعريف واعتراف؟

ولا أشك في الجواب: من والدي شخصياً.

في معاشتي له وهو يطبق يومياً في حياته الحقيقية وإبداعه هذا الإيمان بحرية المبدع ومسئوليته، ثم يحمل موقع المبدع إلى مستوى الريادة التي تفرض على الآخرين الاحترام والتقبل، حين لا ينحرف بهذا الموقع إلى هوة تبرير انحدار المبدع إلى إمعة يتقبل الخنوع لمعايير ومقاييس متلقاً لا يعترف بضرورة التطور، أو يتطرف إلى الرفض في سبيل الرفض والبروز بالاختلاف عن السائد ولو تبجيل الفوضى وكلاهما في الحقيقة يستمد مرجعيته كلياً من السائد، بل عايشته في والدي أيضاً كيف يتصاعد الرائد بمفهومه لأبعاد مسؤوليته الإبداعية الريادية ليصبح رمزاً مرتبطاً بالاحترام حيث يتحمل مسؤولية الريادة الإبداعية بصورة أكثر إلزاماً والتزاماً بالمثاليات من الشخص العادي.

هكذا قبل وبعد تأثير كل الآخرين في تكويني الفني والأدبي تعلمت من موقف والدي من الإبداع ما هو أعمق إدراكاً لروح الفن ورسالة الأدب وماهية الإبداع:

أن الفن هوتأخ مع الحياة، ولكنه ليس تكريساً لظواهرها كمعطيات أبدية.

وأن الفن ما هو إلا محاولة مستمرة للتعبير عن مظاهر الحياة ومعانيها وبلغات متعددة الوسائل والخامات .. ولذلك فالفن متطور بالسليقة وليس للإبداع قالب أزلي يحصر المبدع في تفضيلات ذائقة زمن بعينه.

وكان له في هذا السياق تفسير عن رؤيته لعلاقة المبدع بالحياة سمعته منه مراراً: أن الفن - والشعر أحد وجوهه - هوفي جوهره تعبير عن الحياة واحتفاء بها.

ولكن ذلك لا يلغي مسؤولية المبدع عن التواصل مع الذائقة الأسمى التي قد تكون فوق مستوى السائد المعتمد من المتلقي العام أو خارج محتواه المحدد .

أي أن المبدع رائد في صقل الذائقة العامة وتوجيهها إلى حيث يظل توجهها نحو المتجدد الأكثر حيوية والأجدر بالبقاء في ذاكرة الزمن وحتى لو عانى في تحقيق ذلك من الاغتراب والرفض.

وما كان بمقولة أن الفن هو احتفال بالحياة واحتفاء بها يعني أن الإبداع الأدبي هو بهرجة طرب رخيص أو احتفاليات سطحية بمناسبة رسمية؛ بل المقصود أن المبدع لا

يستطيع أن ينفصل عن تأثيرات الحياة حزناً أو فرحاً أو تأملاً وتفاعلاً، وحين يتفاعل معها يفعل بها ما يفعل الكائن الفطري الملتصق بحقائق الحياة بالسليقة العفوية تماماً كتفاعل الفراش والنحل مع النقوش والأريج ونكهة الأزهار .. تتحول عند هذا رقصات وتحليق بأجنحة شفافة ملونة ، وتتحول عند ذلك إلى إنتاج عسل مصفى، وكلاهما ناتج يجذب إليه ويحتفي به الآخرون طلباً لمتعة فوق متعة الذائقة المحكومة فقط بالتفاعلات اليومية العامة.

أستطيع أن أقول إن عالم الخيال المبدع والفن والشعر انفتحت قنواته في عالمي منذ الطفولة بدخولي أنا في عالم والدي واكتشافي لمكوناته الأساسية: تحليق في الخيال وإيقاع في أرجوحة الكلمات يثيران التفكير لتنتفتح شرفات تواصل عفوي مع الحقائق المختفية عن النظرة البسيطة للمظاهر السطحية لينتهي ذلك التفاعل الجميل بتخليدها في صورة فنية قد يستطيع الآخرون الدخول إلى أسرارها ومعناها وكنهها الأعمق.

كنت إذن منذ البداية من أولئك المحتفين عفويًا بتأثير الإبداع الشعري بالذات في الذائقة الحسية من حيث هو مموسق ومنظم الإيقاع ، ومن الناحية الذهنية من حيث يولد صوراً خارج حدود الوضوح السردي . وحين كنت أسترجع عن ظهر قلب قصيدة إيليا أبي ماضي « الطلاسم » الملحمية الطول أو قصيدة والدي « التمثال الحي » بأبياتها المشارفة على المائة، ودون دافع خارجي يفرض علي ذلك كأن تكون جزءاً من واجب النصوص المطلوب حفظها في برنامج الدراسة ، كنت بصورة غريزية أمارس الانفعال العفوي بالشعر كمتعة يومية في حياتي. الآن أدرك أن تذوقني الطفولي للشعر جاء من انطلاق خيالي مشرعاً أجنحته مطلقاً مع القصائد القصصية وللعوالم التي يرسمها والدي مشرعاً مسرحاً يحمل لي الحياة بكل نزعاتها الإنسانية المعقدة، ولم يأت من الشعر المنظوم الذي طولبت مع زميلاتي عبر مقررات المدرسة الابتدائية لمادة النصوص والمحفوظات أن نحفظه كالبيغاوات متغنيات بالفراشة اللطيفة ، والمرضة الظريفة دون أن يدرك واضعو المناهج كم كان ذلك يختزل عالم الإبداع اللغوي ويستهبين بقابلية الطفل للتذوق الفني

ذلك إذن كان أول تأثير للوالد في بدايات تكويني الأدبي والثقافي .

ومع هذا أقول: يخطئ من يظن أن كون والدي شاعراً وناقداً متميزاً كان أهم تأثيراً في حياتي الأدبية من كونه والداً. ولكنني كنت حظيظة بين قريناتي فعلاً لأنه أتاح لي فرصة لا تتاح للغالبية أن يكون والداً محباً وفناناً أديباً ومثقفاً واسع الثقافة في آن، ولذلك كنت أستطيع أن أتناقش معه بحميمية في خصوصيات الأشياء التي تهمني أديباً وفنياً، بل حتى عاطفياً وأطلعته على أعمق مكنوناتي وتأتيني إجاباته محملة بصدق مشاعر الأب ورؤية الأديب المتمرس بالساحة وبتداخلات العملية الإبداعية، وهو ما لم يتيسر لكل واعد أو واعدة من أترابي. ولكن علاقتي به كطفلته التي يحبها ظلت هي الأصل.

وحين تجاوزت مرحلة الطفولة الأولى إلى الصبا والتساؤل عن دوري في الحياة كنت حظيظة مرة أخرى بأن والدي لم يكن متقبلاً للسائد العام في النظرة للمرأة في صورة مسطحة لا تحمل غير دور الإمتاع والإنجاب. ونظرة والدي للمرأة كإنسانة مكتملة القدرات وقابلة للحوار كانت أهم ما أسس حياتي اللاحقة

والدي والأنثى :

ما الذي تعنيه الأنثى في حياة الفنان ؟ .

ربما الإلهام قبل أي شيء آخر .. ولكنها كزوجة وأم تصبح العرش الذي يحمي الفنان من الفوضى.

الأنثى الأولى والأساسية في حياتنا هي أمي.

هي العرش الذي احتفظ بدفئه حتى النهاية.

أمي ابنة عم أبي وقد تزوجها بعد عودته من الهند بقرار من عمه الأكبر - أبيها- جدي الحاج محمد عميد العائلة، والحاكم فيها بأمره متحكماً في شؤون كل أفرادها.

هكذا تم أن والدي الذي كان قد عاد من الهند حيث ولد وترعرع وأكمل الدراسة الثانوية، تزوج والدتي فاطمة محمد العريضة المعروفة بـ «الوردة» لتورّد لون خديها، وتلك علامة جمال مميزة في مجتمع يغلب على بشرة أفرادها السمرة .

وما كانا عند اقترانهما قد تعديا الطفولة بكثير، هي مطلع الرابعة عشر وهو في الثامنة عشر من العمر، وظلت زوجته الوحيدة طوال حياتها معه ثم بعد أن توفيت بعد خمسين عاماً لم يتزوج غيرها وكان ذلك باختياره.

عاشا معاً على السراء والضراء خمسين عاماً، أنجبت له خلالها ثمانية ؛ ولد وسبع بنات أنا بينهن السادسة . وحين توفيت رحمها الله عام ٧٩ ميلادية بكأها، رحمه الله، بكاء واضح الحرقه، فكانت أول مرة أراه فيها يبكي وما أشد وقع بكاء الرجال. أما هي فقد تعاطفت مع دموعها وأحزانها الأنثوية مراراً وبصورة تلقائية خاصة حين يغضبها منه انشغاله عنها بكتبه أو مصادر إلهامه الغامضة.

أمي رحمها الله كانت امرأة بسيطة جمعت جمال الوجه بنقاء العاطفة وعفوية التعبير وكانت تعيش الحياة محتفية بها تماماً رغم قسوة مجتمعنا في معاملة الأنثى.

وفي حين كان أبي مثقفاً شغوفاً بالبحث عن المعرفة ومتابعة كل كتاب جديد ينزل في السوق بأي لغة يتقنها، لم تتعد أمي مهارة القراءة البسيطة إلى مهارة الكتابة باللغة العربية.

امرأة بسيطة تعلمت قراءة القرآن ولم تتعلم الكتابة رغم محاولات أبي معها.. ثم توقف عن الإلحاح. وفضل أن يشجع هواياتها الذاتية. كانت فنانة بطريقتها الخاصة، لها ميولها في فن التطريز، ووجد أن متعتها إبداع قطع فنية منقوشة، فأهداها آلة خياطة حديثة، ورتب لها أن تعلمها شركة سنجر مهارات استخدام الآلة في النقش والتطريز. . وقد أحبها كثيراً بطريقته الخاصة .. ولم يطالبها بأن تتقرب لتمتد بمقاساته الثقافية الخاصة متجنباً ظلم بيجماليون حين فرض على أنثاه أن تعكس مشاعره وذائقته .

شخصياً لم تشغلني العلاقة غير المتكافئة بين موهبة أبي واتساع عالمه الثقافي ومحدودية ثقافة أمي إلا بعد أن قطعت شوطاً في الدراسة ولعل ذلك أخافني حيناً إذ ربما

رأيت فيه بصورة غير واعية تهديداً لاستقرار العش الذي يحتضننا، ولكن ذلك الخوف سرعان ما تبدد مع إدراكي مدى قوة الأنثى حين تصبح هي النسيج الذي يستمد منه الرجل شعوره بالحنان.

وبذكاء المبدع ترك أبي لأمي أن تكون الملجأ العاطفي لنا جميعاً واحتفظ لنفسه بأن يكون المرجع الأخير في صنع القرار وأن يكون هو مصدر المعلومة العلمية.

وكان يحب أومي بتفاصيلها الخاصة ولا يرى في عدم تعليمها نقيصة تتحمل جريرتها، ولم تكن إلا مثل كل أترابها إذ لم تكن هناك مدارس رسمية بل كان السبيل الوحيد المتيسر لمن يرغب في التعلم هو الكتاتيب أو المطوع الذي يعلم القرآن للفتيان مشفوعاً بلذعات من عصاه، وفي المقابل هناك عصا المطوعة معلمة الفتيات. ولكن أولياء الأمور المهتمين كانوا يجدون طرقاً فردية لتعليم أبنائهم باللجوء إلى مدرسين خصوصيين من القلة المتعلمة. وأما الفتيات فيتعلمن قراءة القرآن عند المعلمة المطوعة ويتدربن على مهارات تدبير المنزل في أفياء البيت.

أستطيع أن أقول إن أبي وأمي أحب كل منهما الآخر، وبأعمق ما يستطيع شابان خليجيان أن يفعلوا عبر الفروق الفردية والحضارية وإن جمعتهم وشائج القربى العائلية؛ هو مثقف غارق في الكتب، فنان يحمل غريته وتعطش روحه مصادر الإلهام محاولاً التوازن بين إغراءات ملامسة الحقيقة وصرامة المثاليات، وهي صبية خليجية بسيطة لا تعرف للأنثى دوراً سوى التفاني في توفير الراحة. أضف إلى ذلك تعقيدات أن كليهما يتيم الأم منذ الطفولة الأولى مما يعني تعطشاً مستمراً للحنان، ومع هذا ظلت سنداً له في كفاحه الحياتي، وظل متفهماً حدود قدرتها على الاستجابة لمحاولاته إدخالها إلى عالمه الحيوي. وكثيراً ما اصطحبها معه في أسفاره خارج الوطن، هو يفتح لها شرفات عالم لم تعرفه ولم تعتد عليه.

كثيراً ما تساءلت :

هل أحب أبي امرأة غير أومي؟

لا أظن .

ومع هذا فبعض قصائده يدل بوضوح على تأثير إلهام نساء أخريات واضح في إبداعه.

هل يعتبر ذلك تقصيراً ؟ ما أعرفه أنه كان مثالياً في شعوره بالمسؤولية العائلية..

ولكن من يضمن مشاعر الفنان أمام جاذبية الأنثى؟

ومن يدري كيف يتفاعل الفنان مع دوافع الإلهام ومغرياته؟

وهل هناك إبداع فني دون مصدر إلهام ما؟

كان أبي يحتفي بالمبدعين أدبياً وفنياً دون تفرقة في النظرة التقييمية بناء على انتماء لجنس الذكور أو الإناث، بل ربما أقول إنه كان متعاطفاً مع محاولة أي امرأة للخروج عن قيود التجهيل والتجاهل التي اعتادها المجتمع حتى فرضها عليها .

لم يكن يجد أن تعبير المرأة عن قدراتها تجاوز للمفروض بل هو ما يجب أن يكون.

كان يحترم النساء المبدعات أدبياً خاصة نازك الملائكة التي أعلم أنه عاصر بداياتها المبهرة، وكان معجباً جداً بتفرد قصائدها وجرأتها في تحدي السائد الأسلوبى، وكثيراً ما قال لي إنني في شعري أذكره بها. وله قصيدة رقيقة بعنوان « ولكن لماذا ؟ » رد بها على قصيدة لها بعنوان « لنفترق » ، ما أظن قصيدتها كانت أصلاً موجهة له شخصياً ولكنه انفعل بها كمبدع متذوق فتجاوب معها شعراً . وقد قال لي يوماً حين شكوت إليه ما أراه من تأثر الآخرين بقصائدي، إن التأثر بإنتاج المبدع إلى حد التفاعل معه هو أكبر تقدير وشهادة فعلية بتميز ذلك الإبداع.

وبالمثل يبدو في قصائد ديوانه « شموع » يتوجه بالحوار في شعره إلى امرأة أخرى كانت زميلة مذيعة أوحت إليه بقصائد قد تكون الأرق والأكثر عذوبة بين كل ما أبدع والأقرب إلى التعبير الذاتي عن مشاعره من قصائده الأخرى.

كان أبي يرى في المرأة مصدر الجمال في الوجود، وليس المقصود ذلك الجمال الجسدي المتمثل في جسد أنثوي لدن، بل كان شديد الحساسية لرقعة المرأة وحنانها وعاطفتها الدافئة . ولعل افتقاده لحنان الأم منذ الطفولة الأولى هو ما شكل الأساس لهذا

التعلق بدفء الأنتى والتحيز لها كإنسانة مكتملة العاطفة والشعور والموهبة، حتى لو لم تحظَ بصقل فكري من حيث التعليم العلمي.

لم يكن والدي مقتنعاً بفكرة انفصال العالم جذرياً إلى عالم رجال يسوده المنطق وعالم نساء تسوده العاطفة . كان يرى أن كليهما إنسان تحكمه العاطفة ويمكنه أن يسعى لسيادة المنطق والحكمة وعبر اكتساب المعرفة. كلاهما يمتلك عقلاً ومواهب هي هبة الله للكائن الإنساني بغض النظر عن جنس ذلك الكائن.

وكنت وشقيقتي محظوظات بمثل هذا الإيمان منه.

هكذا في حالتي الخاصة وجدنتي أتفرد بين قريناتي منذ الطفولة بأنه أشجع لي باب «عالم الرجال» الممتنع على كل أترابي، فقد كان لا يجد غضاضة أن يصطحبني معه إلى مشاويره والرحلات الرجالية والسينما والنادي.

النادي هذا كان «نادي العروبة» العتيق وكان ضمن برامجه أن يستضيف «بهلواناً» إيرانياً أو «ساحراً» هندياً في مناسبات متباعدة. ما زلت أتذكر نكهة متعة تفاصيلها الطفولية بسعادة، ولكنني أتذكر أيضاً تفاصيل أخرى لحضور والدي في النادي حيث كنت أستمتع بمراقبته يلعب الشطرنج، وقد كان بارعاً في هذه اللعبة ، أو يتحاور مع الأعضاء الآخرين، وربما ذاك ما علمني أن الحوار فن ومتعة. وقد وهب الوالد نادي العروبة فيما بعد محتويات مكتبته الشخصية لتكون مكتبة عامة في حرم النادي مفتوحة لاستخدام الجميع .

وهكذا ابتدأت في ظل وجوده الحاني رحلة اكتشاف التفاعلات الاجتماعية والتذوق للإبداع والفن والأدب . أتذكر تلهفي على مرافقته طفلة تتشبث بكف والدها حين يصطحبها معه إلى السينما لمشاهدة الأفلام الهندية والغربية أو في مشاويره عصراً إلى الحدائق العامة في ضواحي « المنامة» حيث كان يلتقي بأصحابه ورفاقه من الأدباء والمثقفين، بل ربما هم أقرب لأن يكونوا من تلامذته من حيث فارق السن، أذكر منهم: أحمد محمد الخليفة، وعبد الله الطائي، وناصر بوحييمد، وأصغي صامتة لحواراته معهم . وكم

كانت حوارات غنية ومثرية حول ما يعنيه الإبداع والفن، وما يدور في العواصم العربية البعيدة ومراكزها الثقافية من تيارات ستشكل فيما بعد علاقتي بالأساليب الأدبية المستجدة ، تلك كانت مؤشرات أضاءت للصبية درب تقدير الإبداع وتذوق الفن.

تلك الحوارات لم يكن هناك ما يضاهاها في مجتمع النساء.

وكثيراً ما عبرت رفيقاتي في المدرسة عن إعجابهن به ، وغبطتهن لي لكوني ابنته، وقد يتمنين لو كانت لهن مثل تلك العلاقة مع آبائهن، ولعلني الآن أكثر فهماً لأبعاد مثل تلك الأمنية منهن، وأعلم أن الكثير من المثقفات والرائدات في الحركة النسائية في البحرين يعتبرنه أباً روحياً لتعليم المرأة.

وفعلاً لم يكن والدي يرى في كيان المرأة ما يجعلها قاصرة عن النجاح في أي مجال، بل كان يؤمن أن المجتمع بحرمان الفتاة من بناء قدرتها في أي مجال وتحجيم مجالات مساهمتها هو ما يجعلها عاجزة عن تحقيق ذاتها وإثبات قدرتها على المساهمة والعطاء، ولذلك أمن بضرورة تعليمها ومصيرية تشجيعها وبناء قدراتها ودعم طموحاتها ومواهبها دون تفرقة بينها وبين أخيها، وإن كانت لها أيضاً مسؤولية دورها العائلي الأمومي كبانية للأجيال القادمة.

وقد طبق ذلك الإيمان في حياتنا الخاصة فقد تولى تعليم شقيقاتي الأكبر في المنزل حتى افتتحت المدارس الرسمية لتعليم الفتيات ، وكان من أول من أرسلوا بناتهم إلى المدرسة حين افتتحت مدارس البنات الحكومية، وكان ذلك في مواجهة معارضة مجتمعية بل وأسرية حادة. ثم سمح لهن بالعمل كمدرسات بعد أن نلن الشهادة الابتدائية، كما سمح للتاليات منهن بالسفر ضمن أول البعثات الحكومية لإرسال المتفوقين والمتفوقات إلى الخارج في بعثات حكومية لمتابعة الدراسة.

كيف كان والدي يرى المرأة بهذه الرؤية المتقدمة على عصرها ومحيطها تطبيقاً حيث يراها كياناً أساسياً في الوجود العام قادرة أن تكون مكتملة الحقوق والمسؤوليات ومطالبة ببناء ذاتها وتحقيق إمكاناتها والمشاركة والبناء .. ثم يتناولها في شعره بصورة الأنثى الملهمة جسداً وعاطفة؟

هل كان هناك ازدواجية في الموقف من المرأة بين جانبيين في شخصيته: المصلح الاجتماعي والفنان؟

لا أظن .. بل كان بإمكانه بتكوينه الثقافي استيعاب كل جوانب كيان المرأة ووجودها الشامل.

وهذه هي رؤية والدي للأنثى كما عبر عنها شخصياً بكلماته أستعيدها بتصريف من الذاكرة:

«جئت صبياً يحمل شعوره بالغربة إلى وطن واقعي شديد الجفاف لم أعرف تفاصيله في طفولتي .. وكنت متعطشاً لدفء حنان الأمومة الذي حرمت منه بحرمانني من أمي رضيعاً، ولذلك ظلت المرأة ورقة وجود الأنثى خيالاً ألوذ به من جفاف المحيط القريب.. ولكنها ظلت في نظري ذلك الكيان الذي يستحق الاحترام والأقرب شفافية بعاطفتها إلى الكمال الإنساني. هي الكيان الروحي الذي يحيل المنزل الحجري البارد إلى سكن دافئ بالحنان، وهي المعنى الأعمق للوجود حيث تجعل من الاستقرار هدفاً لتكون الحياة الإنسانية استمراراً لا التقاء بشرياً عابراً.

وزاد من حدة الشعور بجوهريّة وجود الأنثى في معادلة الوجود أنني جئت من عالم مختلف مغرق في الخيال والأساطير، يحتفي بالأنثى كجزء جوهري في الخارطة الشمولية للوجود الطبيعي والروحاني ويرفعها إلى مستوى التبجيل والمطالبة بدور المعبودة الطاهرة المستحقة للإيمان والمفجرة للإلهام، ووجدتني قد انتقلت في حرمان مضاعف مباشر وغير مباشر، مجتمع الخليج الذي لا يسمح فيه للأنثى بالتعبير عن وجودها الخاص، لا يمكن أن تراها أو تسمعها إلا في الخيال.

ولذلك حملتها في خيالي إلى أقصى ما يمكن أن يسمح به الخيال من الأنوثة والمثالية الأخلاقية».

وحين أتأمل في قصائد والدي أجد حضور المرأة فيها طاغياً ومليناً بالتحيز لها ككائن قادر على وصول أقصى درجات الكمال؛ فهي بتكوينها الجسدي تمثل أوج الجمال،

وهي بتكوينها العاطفي تمثل العطاء والتضحية والطهارة والحكمة الأزلية. ولعله أسبغ على المرأة من رؤاه الخاصة وتعطشه للحنان ما هو فوق ما عايشه فعلاً في واقعه من حيث وجودها حوله كحقيقة بشرية بعيدة مثل الرجل عن مثاليات الخيال.

وظل يقاربها بالكثير من الاحترام والتبخل كما نرى في قصيدته المطولة «إليها» حيث يناديها: « يا ابنة النور» ، و« يا ابنة الفن» .

وحتى حين يوغل في رسم تضاريسها الجسدية في قصيدة «التمثال الحي»، أو قصيدة « تامارا» ، فهولا يفعل ذلك بشبق شخصي بل يحاول تسجيل مدى انفعال الرجل عموماً باكتمال الجمال في جاذبية جسد الأنثى.

كان والدي حتى قبل عصر التنوير من المؤمنين بحق المرأة في الحرية ولكنها حرية الفكر والحضور والتعبير عن الشعور ، وهي حرية مختلفة عن تلك التي طالب بها نزار قباني لاحقاً. لم يكن إطلاق الجسد لغرائزه هو ما تمناه والدي للمرأة بل تحرير العقل من ظلمات الجهل وكوابيس قيود بعض الأعراف .

وكان يسعدني فعلاً أن لا أجد في شعره ما يهين كرامة المرأة من عبارات ترتبط بالشبق المباشر الذي كان سائداً عند بعض مجايليه مثل فؤاد الخشن ومحمد علي الحوماني حتى قبل سطوع مرئيات نزار.

الفض بين الريادة والانتماء:

كثيرون ، رجالاً ونساء، من الذين شاركوني والعائلة أحزاننا في وفاة الوالد، شملت تعزيتهم لنا هذه العبارة « هو والد الجميع»، ولم يكن هذا يأتي من فئة الأدباء فقط بل حتى من المعارف الآخرين والبسطاء الذين ربما لم يستوعبوا من تفاصيل ريادته ومسيرته الأدبية المتفردة سوى أنه معروف جداً ومشهور حتى خارج حدود وطنه الوداع.

أي قدر من الإعزاز والتقدير هذا الذي يجعل « الأستاذ» « والد الجميع»، وباختيارهم؟

حياة ابراهيم العريض - التي توغلت تفاصيلها في كياني بحكم كوني الابنة التي ورثت منه حساسية الشعر وخصوصية الاحتفاء بالحياة- كانت مليئة بالتوهج حتى خارج نطاق عالم العائلة وساحة الشعر والأدب والنقد، فقد كان مثلاً لشخصية الفرد الموسوعي الثقافة والمتفاعل مع مجتمعه بعلاقة حب عفوية المراوحة بين الرغبة في دفعه إلى الأمام والضيق بقصوره عن التحرك بحركة سريعة متحرراً من قيود التخوف والتوجس من ما لا يعرف وما لم يعتده. علاقة خاصة لا يعرفها إلا نخبة من المتميزين لا تنحصر في تقبل معطيات ما سبق من أعراف ومتقبلات مجتمعية دون تساؤل ، ولا تنبع من النرجسية أو حب الظهور الفردي، وقد ظلت تلك الخاصية المختلفة طابع تفاعله مع محيطه عبر قرابة القرن من التفاعل الحي المتفرد، بدءاً بتأسيس مدرسة أهلية متطورة المنهج حتى قبل أن تكون هناك مدارس رسمية، وحتى ترؤسه للمجلس التأسيسي الذي أعد مسودة الدستور البحريني ، كما هي طابع إبداعه الخارج عن الإطار المعتاد محلياً من البداية حتى النهاية.

كل ذلك يثير في ذهني تساؤلات جوهرية في معنى الانتماء والريادة والبناء.

وهل كل من يعتبر نفسه مثقفاً يفهم أبعاد هذه العلاقة ؟

في السنوات العشرين الأخيرة وأنا أتابع - بمعايشة شخصية أو عبر متابعة التغطيات الإعلامية تلفزيونياً وصحفياً - توالي احتفاءات الساحة الثقافية عربياً، والرسمية والشعبية في البحرين والخليج بشاعر البحرين يتردد في ذهني سؤال جذري: «من الذي يزرع الانتماء ؟ الإنسان؟ أم المجتمع؟». وهل كل من حلم بالوصول الى رتبة الرمز يستحقها لأنه يود الحصول عليها أم لأنه يستحقها بمواصفاته الخاصة؟

هل يبدأ المبدع مميز التوهج أم يصل ذاته أم تصنعه أصداء التصفيق وتسليط

الأضواء؟

هل فروض الانتماء كما يتفهمها ويتقبلها المجتمع السائد تبني المبدع الرائد أم تخنق

جذوته واحتمالات ريادته؟

تعود إلى ذهني تفاصيل حياة هذا الشاعر الذي قال عنه مارون عبود: « ما عرفنا
البحرين إلا حين عرفنا إبراهيم العريض»؛

كيف ابتداءً أول تواصل له مع الحياة غريباً محروماً من كل انتماء حتى أصبح بعد
عمر مديد رمزاً للانتماء الأجل بكل معانيه وتطبيقاته.

كيف أضحى الرضيع اليتيم والصبي الغريب ذلك الرجل المعروف ، الرائد الذي
يحترم تميزه الجميع ويخرج في توديع جثمانه الأعيان والبسطاء، ويخلد اسمه في لائحة
الشرف في وطنه الإقليمي الصغير والقومي الكبير؟

لأعد إلى البدء..

مع مطلع الربيع في عام ١٩٠٨ ولد في ضاحية « بونة» من مدينة بومباي مولود
لجدي عبد الحسين إبراهيم العريض، تاجر اللؤلؤ البحريني، الذي استقرت به متطلبات
تجارة العائلة في تلك البلاد البعيدة، من زوجته الثانية جدتي «نائلة» من عائلة النائلة في
كربلاء. وقد توفيت أمه بعد ولادته بشهر متأثرة بحمي النفاس، فاحتضنته جارة هندية
طيبة ثم تولت أمور رعايته سيدة هندية أخرى، بينما انشغل أبوه بأمر تجارته وحياته
وتزوج سيدة أخرى. تربي إبراهيم الصغير يتيماً في غربة عاطفية ولغوية وجغرافية تبلورت
إلى شعور محتدم بالغربة الحضارية، وكان الصغير متوقد الذكاء وموهوباً في التعبير وقد
استطاع أن يدجن اللغات ويخضعها لفنه ولكنه ظل يعاني من شعوره باليتم والغربة
المعنوية مدى حياته العامة.

تعلم الصبي العربي في مدرسة « أنجمن إسلام» الإسلامية الخاصة حيث كان يتعلم
أبناء الطبقة القادرة من الجالية المسلمة، وكان متفوقاً في دراسته موهوباً في الفن
والاستعداد العلمي والأدبي وظل مشغولاً بمتابعة العلم، في البدء كان ميله الفطري للرسم
كما عشق القراءة وأغرم بالرياضيات ونظرياتها، وقد فهمت منه وهو يستعيد معي ذكرياته
عن فترة الطفولة والصبا تلك أنه كان الأول على دفعته في سائر أرجاء الهند في

الاختبارات النهائية. وظل يعشق القراءة بنهم حيث اللغة وقدراتها كوسيلة للتعبير تشده بصورة خاصة وكان استعداده اللغوي مميزاً حيث أتقن الإنجليزية والفارسية والأردية، إلى جانب عدد من اللغات الهندية المحلية الأخرى، ومن ثم بدأ اهتمامه يتركز في جانب ممارسة الكتابة الأدبية.

أما اللغة العربية فلم يعرفها إلا حين زار وطنه البحرين وهو في الرابعة عشرة من عمره، وحين عاد نهائياً عام ١٩٢٦ بعد التخرج من الثانوية اتخذ قراره بدراسة لغته الأم بصورة جادة، وفعل ذلك تحت إشراف معلم قدير هو السيد عبد المحسن التاجر الذي علمه اللغة العربية على أصولها وسرعان ما أتقنها إلى حدّ نظم الشعر بها .

وربما كان من آثار حياته دون ضغوط عائلية في مطلع حياته في الهند أنه اعتاد اتخاذ قراراته المصيرية بنفسه، وأنه يتمتع بمرونة ذهنية وفكرية، ولم يكن قابلاً للقولبة مما جعل شخصيته تتسم بالاستقلالية، وميله الطبيعي في اتخاذ قراراته في حياته الخاصة والعامّة كان دائماً للعودة إلى قناعاته الذاتية لا إلى سلطة خارجية تملي عليه تصرفاته، ولذلك كان رائداً بالسليقة يشق الطريق التي يعبرها بعده الآخرون بسهولة .

ولا أشك من محاوراتي المتعددة معه حول مرحلة طفولته وصباه الأول في الهند أنها كانت مرحلة ذات أثر جوهري في نشأته وانفتاح أفقه؛ أولاً لشعوره الغامر بالغربة، وثانياً لأنه فتح عينيه على معطيات مجتمع متعدد الروافد الثقافية والدينية والفنية يمتلك مخزوناً حضارياً هائلاً.

وقتها في بداية القرن العشرين كانت الهند جوهره التاج البريطاني وموقع التقاء حضارات شاهقة؛ الحضارة الشرقية بجذورها الآسيوية والإسلامية العميقة في الروحانيات والمنجزات الفنية، والحضارة الغربية يمثلها النظام المستعمر بتأكيد التفوق التجاري والسياسي. ثم كانت فترة الصراع الداخلي للتخلص من قبضة الاستعمار البريطاني بكل احتشاده السياسي والعاطفي مسبباً حالة من الغليان الداخلي موحدة الجهود من كل الفئات الهندية مسلمة وهندوسية حتى تحقق الاستقلال قبل أن تتفجر

الأوضاع المحلية بعد الاستقلال إلى صراع ديني وأحداث دامية بين الفئات. ولعل في معايشة هذه التجربة من الوحدة العاطفية والتعايش والالتفاف حول هدف أعلى من الأفراد والفئات ما أسس إيمان والدي بشكلية الفروق بين الفئات والمذاهب.

وحين غادر والدي الهند في العشرينيات عائداً إلى موطن آبائه وأجداده الأصلي ظل جانب منه ملتصقاً روحياً بمعالم طفولته وصباه، وربما فكر في ساعات الضيق المادي والاعترا ب العاطفي أن يعود إلى حيث درجت خطاه الأولى ثم يمنعه عن ذلك ارتباطاته الجديدة عائلياً وشائجه مع مجتمعه الجديد .

ولم تكن اللغة هي الصعوبة الأكبر في استقرار والدي بالبحرين، بل كانت النقلة من أجواء الهند المتحضرة نسبياً إلى أجواء الخليج البسيطة نقلة حضارية ضاغطة المتطلبات على اليا فاع العائد إلى أحضان أسرة لا يعرفها إلا عن بعد ومجتمع لم يعتد أعرافه ومتقبلاته، وكأنما أيقظت هذه النقلة الحضارية حساً مبكراً بالنضج والمسؤولية الاجتماعية.

وكانت أول قناعة توصل إليها أن هذا الوطن الجديد يفتقد الكثير مما يتوفر للفرد في بلاد الله الأخرى، وأن الغالبية العظمى من مواطنيه الغارقين في ضغوط مجتمع غير متطور يراوح في إطار الغوص وصيد السمك والزراعة والتجارة بمستوى شبه بدائي، لا يدركون ما يفتقدون، وأنه ، وهو القادم من مجتمع أكثر تطوراً علمياً، لن يستطيع تبني موقعهم ذاك وتقبل الاختزال الضمني فيه، ولكنه يستطيع محاولة تغيير مفاهيمهم وتوسيع مدى أفقهم .

وكان أول ما رآه أن وطنه الجديد بحاجة إلى نظام تعليم حديث ومؤسسات تربوية وريادة جريئة.

من هنا جاء قراره أن يؤسس مدرسة توفر مثل هذا التعليم

مدرسة تشمل مسرحاً..

لم يكن غريباً وأبراهيم العريض يحمل روح المعلم في أعماقه أن يأتي أول قرار اتخذه أن يحمل على عاتقه مسؤولية إنشاء مدرسة أهلية حديثة تقدم برنامجاً تربوياً لا

معتاداً، وقد استنفر لهذا المشروع اهتمام ودعم النخبة القليلة من أولياء الأمور والأعيان من ذوي الوعي، وحاول أن يستقطب مساعدة الشباب من مواطنيه الذين أتاحت لهم فرص فردية أن يحظوا بالتعليم في دول مجاورة أكثر تقدماً وبمشاركة أفراد الجاليات العربية المتعلمين الموجودين في البحرين.

هكذا جاء مشروع المدرسة يلبي أكثر من حاجة ماسة، ويجذّر وشائج الرائد القادم غريباً بترية وطن أجداده.

وقتها لم يكن هناك في البحرين ولا غيرها من دول الخليج أية مدرسة غير الكتابية المحلية لتعليم القرآن تتيح تعلم القراءة بمستوى بدائي، ولم يكن تأسيس مدرسة مشروعاً سهلاً في مواجهة صعوبات وعقبات متعددة لم يكن أقلها عدم توفر السيولة المالية المطلوبة، هذه وجد حلاً لها في الدعم المادي من تبرعات بعض القادرين من أولياء أمور الطلاب الذين اقتنعوا بأهمية مشروعه، وكما وجد الدعم المعنوي في المتطوعين المتعاونين معه من فئة المتعلمين من الجاليات العربية الأخرى سوريين وعراقيين، أما العقبات الأصعب فكانت تجاوز رفض المجتمع للتغيير ليتقبل إرسال أبنائه ليتعلموا من الأمور ما لم يكونوا يرونه ذا أهمية في حياتهم.

كانت مدرسة متطورة الرؤية والمناهج حيث شمل مقرها عدا تعليم اللغة العربية والإنجليزية والرياضيات والعلوم الطبيعية والإنسانية، تنمية تذوق الفن والروح الوطنية.

ويذكر الأستاذ تقي البحارنة : « المدرسة المتميزة التي انتهى أمرها في أوائل الثلاثينات، ويتذكر إخواني والآخرين الأكبر مني سناً من تلامذة مدرسة العريض ومدرسيها أخباراً غريبة ومثيرة عن هذه المدرسة الفذة وعن أسلوبها غير المألوف، وتمتزج تلك الذكريات بأحداث رائعة كلها من صنع الأستاذ العريض وعن معاناته وصبره في مجال تنوير العقول».

كما يشير الدكتور إبراهيم غلوم في كتابه: « مسرح العريض» إلى قيام الطلاب بتمثيل وإخراج مسرحيات تاريخية صاغها الأستاذ شعراً ملحمياً مثل: « وا معتصماه»، و«بين الدولتين»، وبذلك كان رائداً في المسرح الشعري العربي.

المدرسة لم تدم طويلاً ولكنها دامت بما يكفي لأن تعطي نتاجها الطيب وتفتح المجتمع بتغيير موقفه من التعليم الحديث، حيث تخرج منها العديد من أبناء أعيان البحرين والمقيمين فيها من أبناء الجيرة الخليجية وقادة نهضتها الاقتصادية مستقبلاً، وما زال كثيرون منهم يدينون لإبراهيم العريض بنجاحهم بامتنان . ولكنها تجربة في ممارسة الريادة والقيام بحقوق الانتماء فعلياً ، وهي تجربة مليئة بالعقبات والصراع والمعاناة إذ لم يكن كل المجتمع يؤمن بالتعليم الحديث، ولم يكن كل من يؤمن به قادراً على المساهمة في دفع تكاليف انضمام أبنائه إلى المدرسة القائمة بجهود تطوعية .

وحتى حين ترك والدي مجال التعليم ليلتحق بوظيفة تؤمن متطلبات عائلته النامية ، ظل مؤمناً بأهمية المدارس والتعليم في كل خطوة من حياته.

الغريب الذي أصبح والد الجميع:

من المهم لفهم ظاهرة « إبراهيم العريض » واستيعاب المدى الذي وصل إليه في نجاحه الشخصي متغلباً على حصار زمنه - إلى الحد الذي جعل البحرين تخرج من دائرة الغياب المعرفي لتعرف عند النخبة المثقفة على أنها وطن الشاعر إبراهيم العريض قبل أن يعرف الشاعر بأنه ابن البحرين - أن نراه ضمن إطاره الزمني والمكاني، وهو إطار شديد الانحصار جغرافياً في جزيرة محدودة المساحة، وشديد الانحصار حضارياً في اقتصاديات عالم البحر من صيد وغوص، يتيح للقلة أن يذوقوا الثراء ويخرجوا من الفقر المدقع ويبقي الأغلبية في إسار شبكة الفقر والجهل والمعاناة.

لم يكن إبراهيم العريض حين عاد صبيّاً يافعاً إلى البحرين مصلحاً اجتماعياً بوعي كامل، ولا كان أيضاً مغامراً طموحاً يطلب الظهور الشخصي بأية طريقة.

كان مجرد إنسان صادق يعيش توقد جذوة الفن في أعماقه، ويؤمن أن هناك عالماً أفضل يمكن الوصول إليه متى ما أصبحت المثاليات هي ما يؤمن به ويتمسك به الجميع.

وكان يحمل من الاحترام لإنسانية الإنسان ما يجعله لا يرى في أي فرد سوى إنسانيته، وهي ما يؤهل ذلك الفرد لأن يستحق حياة أفضل مبنية على المعرفة والإدراك.

ولذلك جاهد إبراهيم العريض ضد الممارسات المتعارف عليها والمتقبلة اجتماعياً في ذلك الإطار الضيق ليكسر طوق الجهل الذي يُبقي الفرد في قبضة الواقع الضاغط .

لم يكن خروج الوالد عن متقبليات المجتمع تمرداً لمجرد إعلان التمرد وإبراز الاختلاف بل كان يرى أن تلك المعتقدات ضرورية للرقى العام والتطور.

هكذا كان والدي عاملاً مهماً في إدخال التطور والتغير الاجتماعي في النظرة العامة إلى التعليم الحديث، بحيث حملته خارج نطاق التعليم الديني إلى حيث هو شامل لكل المهارات بما في ذلك العلوم والفنون وكل ما يتعلق بشمولية ارتباط احتياجات الإنسان إلى كل ما يتطلبه وجوده المعقد جسداً وعقلاً وروحاً.

ومثلما كان له تأثيره في تغيير النظرة المجتمعية بالنسبة إلى التعليم، كان له دور كبير في تغيير النظرة المجتمعية إلى المرأة ودورها ومساهمتها في المجتمع بصورة خاصة.

وكان له دوره الريادي في عدم الخضوع للضغوط المرسخة للفروق بين الفئات الاجتماعية والمذهبية حين جعل المواطنة تحتم الانتماء إلى وطن هونفسه جزء من أمة ، وليس إلى فئة بعينها من المواطنين، رؤية غير معتادة في تلك البدايات القبلية أن يكون الانتماء إلى أمة شاسعة الأفاق والمنجزات.

وقد أدرك مواطنوه هذا الموقف الصادق منه وحبه للوطن بصورة تتعدى ما اعتادوه من التعبيرات السطحية المتغنية بالوطن إلى ممارسة المواطنة الحقيقية ومطالبة الانتماء بعدم التضحية بالمثالية في التصرفات الفردية، ولذلك أحبه الجميع - بما في ذلك القائمين بالأمور وصناع القرار الرسمي- وقدروا تميزه في مفهومه الخاص لما هو الانتماء، وكان التعبير عن هذا التقدير والاحترام هو اختياره عام ١٩٧٣ لرئاسة المجلس التأسيسي الذي قام بوضع وصياغة الدستور الأول في تاريخ البحرين.

و ربما أحبه الناس على اختلاف فئاتهم لأنه ابتداءً بحب الآخرين و تقبلهم بكل ما يتميزون به من اختلافات.

و لأنه كان صادقاً و واثقاً من مبادئه فقد بدأ بنفسه و الأقربين.

عودنا والدي تقبل التعددية في هذا الوجود والبحث عن المشترك الإنساني الذي يجمعنا و الآخرين بدلاً من الاختلاف الذي يفصلنا في فئة مكثفية بخصوصيتها ورفضة لحقوق الآخرين في التعبير. وعلّمنا تقبل اختلافات الذائقة وتذوق فنون الآخرين وخصوصيتهم، فهو يحاور أصدقاءه بلغاتهم ولا تحاصره لغته في الاكتفاء فقط بمن يشاركونه قدرة الحوار بها .

اللغة عنده مفتاح للتقارب و التفاهم وليست جدراناً عازلة تفصل من يتكلم بهذه اللغة عمّن يتكلم بأخرى.

كان بصدق يؤمن بالتعايش و أن الاختلاف هو ما يعطي للحياة نكهتها الأجل .

و أرى الآن أنه من فتح الأفق الوجودي الأكبر أماننا فعلّمنا احترام إبداع الله في كل مكان و بأي صورة جاء، و هو قدر أن يستثير اهتمامنا بالفنون المختلفة تشكيلية وتعبيرية في أي موقع جغرافي، وأصر أن يأخذنا إلى المتاحف التاريخية والطبيعية والفنية في كل بلد نزوره. . كان قادراً على تقديم الحقائق العلمية الجافة في صيغة شاعرية الرؤية قابلة لاستثارة التفكير و المتعة الذهنية، هكذا أورثنا استمتاعه بتفهم المعادلات الرياضية وكان حقاً عاشقاً للحقائق في مجال الرياضيات والحساب.

و حين علمنا أن حقيقة الحياة هي في التعددية و ليس في الرأي الواحد ، واحترم مبدأ أن تفهم الوجود وملامسة أبعاده ومعانيه في الحياة لا يأتي إلا من منطلق رؤية جوانبه وتفصيله و تقبلها بشمولية تكاملها كحقائق علمية وتفاعلات إبداعية تعبيرية؛ وأن اختلاف التفاصيل البشرية المجتمعية لا يعني انتفاء المشترك الوجودي و الموروث الإنساني

الذي يجمع البشرية كلها من حيث هم خلق الله، كان يعيش معنا ما عرف فيما بعد بعقلية ما بعد الحداثة في حين يحيط بنا عالم التفاعلات المعتادة في فترة البدائية الحضارية.

هكذا كان رجلاً ذا أفق واسع في كل بعد من أبعاد حياته .

لم يؤمن بالانتماء الضيق سياسياً في حدود حزبية أو مذهبية و لكنه آمن بضرورة المواطنة الواعية والالتزام بالقانون الساري لحفظ النظام.

آمن بالانتماء الأوسع، بالأمة العربية الواعية لمسؤولية المحافظة على أمجادها وليس بالشعارات الضيقة المفهوم سياسياً فقط : و اعتز بالحضارة الإسلامية بكل جوانبها الفنية والأدبية و افتخر بها و بتميز منجزاتها في إطار الحضارة العالمية المستمرة.

و لم يخضع لفرضيات الانتماء الضيق فنياً في حدود الذائقة المحلية وإبداعياً في حدود المتعارف عليه. في تذوقه للفن شجع حركة التلاقح والإثراء ، و تقبل كونه وريثاً شرعياً لكل الفن الإنساني في عالم أكبر جداً من الأرض التي ينتمي إليها.

و في منهجه التعليمي مارس بصدق شمولية العلاقة بين الفنون و اللغات التعبيرية المختلفة، و بين الفنون التشكيلية و المهارات الحرفية؛ و بين العلوم و الآداب و الفنون.

في استخدام الوسائل الفنية كان مجدداً لا مقلداً و لا منحصرأ.

في مواضيعه كان رومانسياً يميل إلى التعبير عن طموحات الطهارة و مثاليات وأحلام الإنسانية والمشاعر الأزلية الدائمة لا الفئوية العابرة. لم يحاول أن يخلد ما يكره في الواقع بل ما يود أن يكون في الإطار الأجمل، ولذلك لا نجد مآسي المعاناة الطبقيّة والأسرية المعتادة في أدب الخليج بل نجد رصداً لجدلية الصراع الأزلي في نفس الإنسان بين الخير و الشر و البحث عن الحقائق الخالدة.

و استطاع أن يمتاح من خلفيته التاريخية ويستمد روافد محيط إبداعه من حركة التاريخ العربي و الإسلامي في الأندلس و فلسطين و آسيا و الشرق.

حتى في علاقاته الثقافية و الشخصية كان أوسع مجالاً من انحصار المحيط الخاص.

ظل طيلة حياته المدينة يحارب الغربية ويردم الفجوة بين الناس ويرفض مبدأ الأسوار التي تقيمها المبادئ الفئوية، فقد عانى من الغربية في الطفولة والصبا والشباب، وهو الذي في كل موقع من المحيط الخاص عاش فيه كان مطارداً بالغربة حيث هو الذي لا ينتمي بسبب اختلافه بما يتميز به عن المجموع .. هو العربي في الهند بين الهنود، والمسلم بين الهنودوس. وفي الخليج هو المثقف خارج إطار الثقافة المحلية، وفي حركة الأدب في البحرين جاء قبل المد التعليمي الذي حمل بدايات المبدعين.

و مع هذا استطاع أن يطوع شعوره بالغربة ليوضح للقادمين من المواطنين والمبدعين رجالاً و نساء و طناً يتقبل الجميع و يعتز به الجميع.

وفي كل موقف مارس فيه رفض السائد كان على حق حيث ما يراه هو الأمثل، وظل حتى في رفضه إيجابياً يؤكد على البناء لا الهدم.

هذا إذن ملخص شهادتي لـ «الأستاذ» ، الشاعر الذي فتح لي أبواب الوجود والذي عرفته جيداً و أحببت تميز رؤيته الفذة :

هو رجل عاش بصدق مدفوعاً لتحقيق حلم لا يدرك تفاصيله متجذر في قلب طفل يتيم صقله الإحساس بالغربة ، و بحسّ فنان و عقل مثقف و إيمان مصلح اجتماعي استطاع أن يقفز برؤيته إلى مجتمع « ما بعد الحداثة» ، مجتمع العولمة الذي يتقبل تعايش الجميع بكل فروقهم و اختلافاتهم، وأن يتجرأ أن يضع حجر الأساس الفكري في الخليج لذلك المجتمع القادم لا محالة.

الدعاء الأخير:

حتى كتابة هذه الكلمات، مر أكثر من شهر على وفاة الوالد ولم أعتد غيابه بعد.

وما أظنني سأفعل فقد كان دائماً رجلاً ذا حضور طاغ .

البارحة كان حفل تأبينه مكتظاً بمحبيه ومعارفه من المسؤولين في البحرين، ورجال العلم والأدب في العالم العربي عامة والساحة الخليجية بالذات. وكان احتفالاً مهيباً ألقى فيه كلمات كريمة.. وأقل ما أقول فيها إنها شهادات يتشرف أبناؤه أن يسمعوها.. شهادات مليئة بالحب والاحترام والتقدير من رجال عرفوه عن قرب ووجدوا فيه ما يذكرونه بالخير. ووزع وقتها كتاب ضم بعض هذه الشهادات الكريمة.

لا يجد من عرفوا والدي صعوبة في الحديث عنه.

أما أنا فأجد في ذلك صعوبات جمة ليس بينها مشكلة القدرة على صياغة الكلمات، تلك قدرة جاءتني بالوراثة، وإن كان الوالد يعترض على فكرة أن المواهب تورث للأبناء.

الصعوبة الأكبر أن لي مع والدي علاقة أخرى غير ما يتعلق بمسألة الموروثات الجينية، علاقة لا أراها تدخل تحت أي تصنيف بسيط.. فهي متداخلة الجوانب والروافد تستعصي على التبسيط والاختزال.

في البدء كانت علاقة عفوية تلقائية لا تختلف كثيراً عن علاقة أي وليدة بوالدها، ثم تنامت الوشائج مع مسيرة العمر وتداخل منعطفات التجربة إلى علاقة فردية تجمع اثنين بينهما تكامل الجذر بالفرع مادياً وذهنياً وعاطفياً.

عبرت معه مرحلة الأسئلة الطفولية تلاحق بها طفلة تفتقد المعرفة أباهما الذي تراه عالماً بكل شيء، إلى مرحلة اختزاله للإجابات في اقتراح مصادر المعرفة وعلى الصبية أن تبحث عنها بنفسها، حتى مرحلة الحوار شبه المتكافئ بين اثنين متفقين على ضرورة البحث عن حقائق الأمور وأبعادها المتداخلة.

ثم.. في المرحلة الأخيرة في زيارتي له كانت محاوراتنا تحمل تناولات أدبية وانفعالات وعنفواناً فكرياً وأبعاداً تاريخية وسياسية تبدو في سرعة حركتها وشموليتها متناقضة جداً مع واقع انحصار حركته الجسدية في كرسي بين جدران البيت المتواضع. ومع ترامي أفاق تفاعلاته الذهنية السريعة بين مخزون ذاكرته الشاسعة ونظراته المستقبلية البعيدة المدى كان تقبل فكرة أنه ماضٍ حتماً إلى غياب لأبد منه، فكرة متعبة جداً، مرة الطعم وصعبة الابتلاع.

وبعد انتقاله إلى بارئه كان من الصعب بالنسبة لي شخصياً تقبل فكرة غيابه كحقيقة لا يمكن نقضها.

وفي حين نزلت وقتها أقلام معارفه ومحبيه، وفاضت أحبار المطبوعات الصحفية والأدبية كتابة عنه، وجدتني، في حرقه توجعي عاجزة عن التعبير.

القليل الذي استطعت كتابته وقتها جاء بصورة قصيدة قصيرة من وحي آخر حوار لي معه سميتها: « الدعاء الأخير ». ربما جاءت تسجيلاً لموقفه ومشاعره في آخر أيامه أكثر مما هي تعبير عن مشاعري الخاصة التي كانت أشد شجناً من أن أستطيع تسجيلها في كلمات.

الآن بعد أن تهادنت مع فكرة غيابه أدرك أن حزننا على فراق الأحبة هو في النهاية تعبير عن أنانيتنا وحبنا لأنفسنا إذ نود الاحتفاظ بهم أبداً رغم علمنا بأن ذلك مستحيل.

الدعاء الأخير

قلت لي - إذ تمنيتُ أن يطولَ بكَ العمرُ:-
« لا يا ابنتي ..
سوى أنه أجلُّ بقضاء من الله
لا رغبة أن أوْجَلَ يوميَ عن موعدٍ مسبقٍ
و انتظرُ الارتحالَ الأخيرَ إلى رحمةٍ و فضاءٍ



قلت لي يومها:
« أمّتي وجعي يا ابنتي
قاربَ العمرُ قرناً و ما
شارفتَ أمّتي وعدّها
دربها انحداً عن العنقوانِ
و لا أملٌ واعدٌ بارتقاءٍ
و ينعقدُ الدربُ حتى ثمالةٍ علمي بهِ
و حلمي يرتدُّ في الحلق لا يتحقّق نصرٌ ولا أمّتي
تتوضّحُ رؤيتها تستعيد الرجاء» .



قلت لي:
« يا ابنتي سأموتُ وقلبي منفطرٌ

يحاصرني الاحتشادُ بأحزانها
وما زلتُ في حسرتي
أمتي تتناوبها صفعاتُ الرياح
حاصرتُ أفقها الرازحاتُ ولم نستوِ بعدُ
كلُّ الصفوفِ فلولُ
و غضبتُنا خارجَ الاحتواءِ».



قلتَ لي:
« هو دربٌ يسيرٌ إلى حتمه
لا يعود إلى بدئه الغضُّ
لا يترقُّ بالواقفين
لا يتسامح و الغائبين عن الوعي
لا خيارٌ لمن يكتفي باختيار الوراثة»



قلتَ لي: « قد تعبتُ
من الوقفة المستديمة عند الكلام الأخير
ولا شيءَ بين السطور واعدُ بانجلاءً.



يتساوى هنا وجعُ الليلِ أو وجعُ في النهار
لا جسدٌ يتحامل كي يتجمّل
ولا الروحُ راضيةٌ بالبقاء.
فادع لي يا ابنتي ألا أطيلَ البقاءَ هنا
- دار حزنٍ طويل-

أن أعودَ إلى رحمة الله حين يشاءُ
يتساوى هنا وجعُ الليلِ أو وجعُ في النهار
لا جسدٌ يتحامل كي يتجمّل
ولا الروحُ راضيةٌ بالبقاء
فادع لي يا ابنتي ألا أطيلَ المكوثَ هنا

- دار حزن طويل -

أن أعود إلى رحمة الله حين يشاء».



قلت لي يا أبي

وها أنا أفتقد الصوت إذ أستعيد الدعاء

إلى رحمة الله يا أبتى.. و دار البقاء.

الحمد لله على كل شيء..

لقد عاش الوالد عمراً طويلاً حافلاً بالعطاء، وكان خلال الخمسة عشرة سنة الماضية يكرر: « إنه الفصل الأخير يا ابنتي» وكأنني به قد ضاق ذرعاً بطول امتداد « الفصل الأخير» هذا، وما حمل معه من معاناة فردية و قومية عامة.

هذا الفصل الأخير كان شاقاً جداً على الوالد رحمه الله جسدياً و معنوياً، وربما كانت المعاناة المعنوية أشد عليه من المشقة الجسدية التي تحملها مرحلة تقدم السن. ولا كان الوالد من أولئك الأفراد القصيري حبل التحمل الذين يعلنون شكواهم بأعلى الأصوات أو يطلبون التعاطف من كل من يحيط بهم، فقد ظل حتى النهاية شديد التجل و محافظاً على صورة «الأستاذ» المتمالك لكل انفعالاته حتى في وجود المعاناة.

وما كان يخفف من تلك المعاناة إلا تكاثف محبيه حوله وبقاء تواصلهم معه مستمراً في زيارتهم ومهاتفاتهم .

والحقيقة أن ضيق والدي بواقعه الخاص وواقع الأمة العام كان أماً مزدوجاً، فهو في أيامه الأخيرة افتقد قدرة الحركة الجسدية بحرية، ولكنه ظل متقد الذهن متابعاً لتطورات أحداث العالم العربي والإسلامي وانعكاسات تلك الأحداث وتأزماتها في أصقاع الأرض، خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر و ما جنت على أبناء الأمة من استعداد و تضيق خناق. ضاق ذرعاً بالواقعين المتدهورين: واقعه، وواقع الأمة التي أحبها ولم يكن هناك في الأفق الزمني القريب ما يتطلع إليه .. سوى رحمة الله.



و حين ينشر هذا الكتاب- إن تم كل شيء بمشيئة الله على ما يرام - سيكون قد مر نصف عام على عودته إلى بارئه.

نماذج من
شعره



الوطن المفدى

سَقَتِ الغادياتُ أرضاً رعثنى
طاب للظبي في رباها المقامُ
ورعى الله تربيةً أنشأتني
وعهودُ الصِّبَا بها أحلام
خلعتُ حسنَّها عليها الليالي
وازدهتُ في ظلالها الأيام
وعليها تناثرتُ دُرُّ القَطْ
مر انتشاراً وانحلَّ ذاك النُّظام
إن غصناً أطلَّ في القلبِ غنّى
فوقه بلبلٌ وناح حَمَام
كلَّما اهتزَّ جانبُ القلبِ للذُّكْ
مرى، فللوجدِ فوقه أنغام
ساقني موطني على البعد شوقَ الطُّ
طَيرٍ للظلِّ قد براه الأوام
والمهى للمروج والأرضِ للغَيِّ
ث إذا أمحلتُ وماج القَتام
جئتُها والخشوعُ ملءُ ضلوعي
بعد أن عُلتُ بها أعوام
فرأتُ من خلالِ دمعي عيني
أثراً للذين في الربع ناموا

طَلُّ قَدِ ضَحِكَ فِيهَا الْأَمَانِي
فَهِيَ بَضَاءٌ لَيْسَ فِيهَا مَلَامٌ
فَاخْلَعْ النِّعْلَ إِنَّهَا تَرِيَةٌ بُو
رِكَ فِي نُبْتِهَا سَقَاهَا الْغَمَامُ
تَرِيَةٌ قَدِ تَسْلَسَلُ الْمَاءُ مِنْ تَحْدُ
تِ رَبَاهَا تَزِينُهَا أَعْلَامُ
لِفَحْنِهَا الرِّيحُ وَالشَّمْسُ حَمْرًا
ءُ ، كَلَوْنَ الزَّجَاجِ فِيهَا الْمُدَامُ
خُضْرَةٌ فَوْقَ حَمْرَةٍ قَدِ جَلَّتْهَا
صُفْرَةٌ فَوْقَهَا خَفَقْنَ الْخِيَامُ
وَعُقُودٌ مِنَ السَّالِئِ يَهْدِي
هِيَ لِجَيْدِ الْحَسَانِ بِحَرِّ طَغَامِ
عَلِقَتْهَا نَفْسِي شَبَابًا وَبُرْدُ الدُّ
عَيْشِ غَضُّ فِطَابِ فِيهَا الْغَرَامِ
لَا أُرْتِنِي الْحَيَاةُ بَعْدَكَ أَرْضًا
مَوْطِنَ الدُّرِّ لَا عَاكَ مَقَامِ
تِلْكَ أَرْضُ الْجِدُودِ أَرْضُ أَوَالِ
حَلِّ مَغْنَاكَ نَخْرَةَ وَسَلَامِ

من ديوان: «الذكرى»، ١٩٣١

الغصن الداوي^(١)

لَهْفِي عَلَى غُصْنِ ذَوِي قَهْرَا
أُودِي وَلَمَّا يُنْبِتِ الزُّهْرَا
غُصْنٍ نَضِيرٍ كَانَ يَبْعَثُ مِنْ
طَيِّبِ الرِّوَائِحِ حَوْلَهُ نَشْرَا
كُنَّا نُؤْمَلُ أَنْ يَمُدَّهُ
فَرَعًا فَنَرْفَعُ فَوْقَهُ وَكْرَا
وَيُرى نَضَارَتَهُ إِذَا انْبَثَقَتْ
أُورَاقُهُ وَبَدَتْ لَنَا خُضْرَا
فَاتَى عَلَيْهِ الدَّهْرُ فِي قِصَرٍ
وَقَضَى عَلَى أَمَالِنَا قَسْرَا
يَا دَهْرُ وَيْحَكَ كَمْ تُبِيدُ وَلَا
يَشْفِيكَ مَا تَجْتَزُّهُ قَهْرَا
كَمْ رَوْضَةٍ غَنَاءَ مُورِقَةٍ
أَسَدَلْتَ دُونَ نَعِيمِهَا سِتْرَا
وَطَوَيْتَ غُصْنًا كَانَ مِنْبَثِقًا
وَعَرَيْتَ عُودًا كَانَ مُخْضَرًا
يَا دَهْرُ فِي جُنْحِ الدَّجَى دُرْرًا
مَنْتُورَهَا أَيَّاتُكَ الْكَبِيرَى
يَكْفِيكَ لَوْ أَحْصَيْتَهَا عَدَدًا
الْبَغْضُ مِنْ حَبَّاتِهَا الصُّغْرَى

(١) في رثاء أخته الصغرى، وقد توفيت في ١٩ من ربيع الآخر ١٣٤٩ هـ.

والحالُ يُقضي أن تكونَ بها
في غبطةٍ لا تُضمِرُ الشُّرّاً
واهأُ فما يدعوكَ تأخذُ كلُّ
لِ خريدةٍ من أرضنا قهراً
أتراكَ إن سألنكَ والهةً
عمّا بدا تُبدي لها عُذراً



غصبتُ يدُ الأيامِ لؤلؤةً
كنّا نُؤمّلها لنا نُخراً
إن التي كانت لنا سَكناً
يا نفسُ فاضتِ روحُها حَسْرَى
أودى بها الدهرُ الخؤونُ ولمْ
مّا تقضِ من عهد الصَّبِّ زهراً
عاشت على مضضِ الحياةِ ولو
بقيتُ لما عرفوا لها قَدراً
رَبِّي قضيتُ بما قضيتُ فهل
ألهمتُ قلباً حبّاً صبراً
يا حبُّ كنتَ إذا لجأتُ بنا
تحنو عليكِ قلوبُنا شُكراً
لو غاب شخصُك عن نواظرنَا
يوماً سكبنا الدمعَ مُحَمَراً
طابت لنا بوجودك الذكرى
واليومَ أندبُ نفسكَ الحَرَى
كنّا كغصنيّ بانهٍ حملتُ
من كلِّ لونٍ زاهٍ زهراً
والعيشُ في روضِ المنى رَغيدٌ
في ظلِّ سَرَحٍ ينثرُ الدرّاً

كنا زماناً لا يُكاتبنا
أملٌ لأغراض الهوى سِراً
ما زالت الأيام تُنذرنا
والنفسُ تحسبُ عُرقها نُكراً
والشُّهُبُ في الظلماء ترصدنا
وتعدُّنا ونعدُّها دهرًا
حتى سكنَ بنا على جدثٍ
خَطَّتْ عليه يدُ الردى سَطْرًا
للنفسِ ساعاتٌ تُسرُّ بها
فتخال أنْ خلودها يُشْرى
لكنَّها، والحقُّ قد جهلتُ،
في القبرِ تلقى الراحةَ الكبرى



لا أنسَ نظرتك التي بعثتُ
في القلبِ من ألامها جَمْرًا
أُخِيَّ قد أذف الرحيلُ فهلُ
تبكي لفقْدك أختك الصُّغرى
في ذمَّةِ الأيامِ لؤلؤةً
مكنونةً أودعْتُها القبرا
ويحَ الجُسومِ العُرى إنْ نزلتُ
بعدَ الأحبَّةِ منزلاً قُفْرا
يا ساكنَ الأجدادِ هلْ نبأً
يجلو حقيقةَ أمرنا جهرا
حدتُ بسرَّ الموتِ أنفسنا
إن كنتَ ممَّنْ يُدرك السُّرَّا
يا حبُّ! خبِّرنا اليقينَ بأد
نا سوف نحيا نشأةً أُخرى

والجسمُ إنْ زالتْ معالمُهُ
فالروحُ تبقى بعده دهرًا
تبقى تحوم كطائرٍ غردٍ
حتى تُقيمَ لنفسها وكرًا
عُودي إذنْ بالحقِّ راضيةً
مرضيةً يُسرَّتْ لليسرى
وتَبَوَّئي عرشاً حَبَّاكِ بهِ
ربُّ سما فوق النُّهى قدرا
طوبى لها روحاً رأتْ كدرًا
في عالمٍ يعثو بنا غدرا
فمضتْ من الأوصابِ سالمةً
تشدو بنعمة ربِّها نكرًا
يا ليل! لا تَمْنِ عليَّ يداً
يا شمس! لا تُفشي لنا سِراً
إنَّ الحِمامَ جلاءُ غامضةٍ
لا تبلغانِ كُنْهها فِكرًا

غمراً الإلهُ بفيضِ رحمتهِ
لحداً حواكٍ وعظماً الأجرًا
إنَّ غَيِّبَتِكَ صحائفٌ فلقد
خَلَّدتِ ما يُحيي بهِ نكرًا
سَقِيًّا لِقَبْرِ قَدِ نزلتِ بهِ
وسقى ثراكِ سحائبٌ تنرى

من ديوان : «الذكري» ، ١٩٣١

أرض الشهداء

فاتحة:

يا فلسطينُ وما كنت سوى
بيعة الأرض
على كف السماء
اشهدي.. أن بياني قد روى
فيك ما يرضي
قلوب الشهداء

هذه التربة.. مُذ غنى بها أهل الحداء
لم يطهرها من الرجس سوى تلك الدماء
كم زكا المسجد من أعرافهم، بعد الفناء
كم بكى الغيث على أجداتهم، وسَط العراء
كم ربيع مر.. لم يعرج عليهم بهناء
فاستمر العود عوداً ما به أدنى رواء
وشتاء.. طال حتى ملّ من فرط البلاء
وتمادى الظلم فيها لغزاة أدياء
فكأن الليل شيء ما له معنى انتهاء
ثم.. جاء الفجر يسعى بتباشير الضياء
فإذا البعث.. له ألف لسان في الفضاء
غنت البيد بها - ثانية - لحن السماء
هذه أرضك يا دعد، وأرض الشهداء!

من: ديوان: «أرض الشهداء»، ١٩٥١

يد بيضاء

(١)

بدا من أفقه البدر
يُسامر جُلسه

على مهل
على مهل

فحرك جفنه الزهر
وصعد أنفاسه

من الكلل
إلى القبل

نفض البدر على العُص
من الذي حياها.. نُوره
جاعلاً من أصغر الأور
راق في الحُسن نُظيره
مُنقياً للزهر دراً
كلما ألقى عبيره
في رياضِ نمنم الأي
ل حوالئها سُتوره
كلما اهتزت مع الما
ع حواشئها المنيره

رقصتُ بين يديّ دا
ئيرةٍ أخرى صغيره
وزكاف في الليل عَزْفُ
علم الطير صغيره
كاد يُنسي كل شيءٍ
قلابه إلا سروره
فمضى يهتف بالحُسْنِ
ن ، ويستدعي سميره
صَيْدَجِيٌّ وَدَلْوُ شَا
طَرَهُ البدرُ شعوره
من رأى في راحة الأَوْ
راق كالطفل سَريره
خافياً يحسبه الشا
عِرْفِي الليل ضميره



(٢)

رأته وَسَطَ دنياهُ
على الغصن الرطْبِ
يُمْنِيَّهَا
بأنغامه



فلَمَّا قاربتُ فاهُ
طفتُ قُبْلَةَ الحبِّ
على فيها
لأكرامه



ملح القُمُريُّ خُوداً
 كتم الـليلُ سُراها
 وأبي الحسنُ بأن يَطُ
 —وي أذبال صـبـهاها
 يفخر العشبُ على الرُّه
 —ر إذا مَسَّ خُطاهها
 ويفوح الماءُ كالـمـس
 ك إذا قـبـلَ فـهاها
 جمدتُ - لَمَّا التقتُ عَينُ
 —ناهما - حيث رآها
 إنَّه يـلـوي لـها الجـي
 —دَ فترعاه انتبـهاها
 «ليت شعري ما الذي تَه
 —مِس سـيراً شـفـتـهاها؟
 هل رأئتني وَسَطَ دنـيـا
 ي مـطـلاً من ذُراها
 أبداً أبـتـكر الـنـع
 —مَة حُبباً في صـداهاها؟
 هي تـصـغي لك يا قـم
 —ريُّ فاصدحْ بهـواها!
 وانشُد الـليلَ لـمـاذا
 سُمِّي الـبـدرُ أخـهاها
 سيـلـوذ الـوردُ بالـصـم
 —ت.. وتحكي وجنـتـهاها!



(٣)

شدا القُمُريُّ بالحُبِّ
فهل بثَّ أشجاني
بتجويدة
على بانه



فقد وَقَّع من قلبي
على وترِ ثنانِ
بتغريده
والحانه



وشدا القُمُريُّ بالحُبِّ
بِ كَمَا شَاءتِ وَشَاءَ
نَاعِمًا يَبْعَثُ مُوسِيِدَ
قَاهُ فِي النَفْسِ هِنَاءِ
مُوقِظًا فِي طَرْفِهَا الحَا
لِمِ أَشْبَاهِ الحَا وَضَاءِ
فَكَأَنَّ الأَرْضَ عَطَشَى
صَادَفَتْ فِي الشَّدْوِ مَاءِ
وَاسْتَحَالَتْ أَنْجُمُ اللَّيْلِ
لِ جَمِيْعِ عَاشِقِ العَرَاءِ
كُلُّهَا تَخْفِقُ بِالحُبِّ
بِ ، وَتَهْتَزُّ غِنَاءِ
فَأَصَاخَتْ وَهِيَ لِاتِّاءِ
لُوبَعِيْنِيهَا احْتِفَاءِ
فِي يَدِ الظُّلْمَاءِ حَتَّى
نَشَرَ الصَّبْحُ لَوَاءِ

صَوْتُهُ يَغْمُرُهَا بِأُ
لَحْنٍ كَالْمَاءِ صَفَاءِ
تَسَارَةً يَمْلَأُ أُذُنَيْ
هَهَا وَطَوْرًا يَتَنَاءِي
وَيَدَاهَا فَوْقَ خَدَيْهِ
نِ، قَدْ احْمَرَّ حَيَاءِ
تَشْهَدُ الظُّلْمَةَ نُورًا
وَتَرَى الحُبَّ رَجَاءِ



(٤)

أَفَاقِ الفَجْرِ مِنْ حُؤْمِهِ
فَمَنْ عَلَّمَ الشَّادِي
يُبَاكِرُهُ
يُنَادِيهِ



بِأَنَّ النُّهْرَ مِنْ نَظْمِهِ
وَفِي شَطْرِي الوَادِي
أَزَاهِرُهُ
قَوَافِيهِ



وَقِفِ الفَجْرُ عَلَى الوَا
دِي مُطْلَأًا مِنْ هِضَابِهِ
كَأَمِيرٍ عِبْقَرِيٍّ
زَانِهِ حُسْنُ شَبَابِهِ
فَاسْتَفَادَ الزُّهْرُ مِنْ عُرِّ
رَتِّهِ لَوْنِ خِضَابِهِ
وَكَأَنَّ الفَقْنَانَ المَمِيَّ
يَبَادُ نَشْوَانُ لَبَابِهِ

يرفع الكوب الذي بيدي
من يديه بحبابه
يحتسي الطائر منه
ثم يمضي في خطابه
فكان الشمس لا تُش
رق إلا في رحابه
يا ابنة النور! انظري عني
سك من نوراً ببابه
كيف لا يُثني عليك النور
نهر أثناء انصابه
مزج الخالص من تذب
رك ذوباً بترابه
وامتطى الصبح لرؤيا
ها على ظهر سحابه
فانجلي شيئاً فشيئاً
كل حُسْنٍ في ركابه

(٥)

أسير.. ناله الجهد
وأغضت ناظريها
على الدمع
ولم تدر

فمن ألهمها بعد
بأن تثنى يديها
من الدرع
على الصدر

وأراد الحب أن يُـ
حق «بلقيس» بغيده

فمشت... داعيةً للز
 زهر بالسُّقيا وعُوده
 وفمٌ حوله ما لا
 يتواني في نشيده
 في سرورٍ وابتهاج
 ذكراً المرء بعينه
 تارةً من وسط الغا
 ب، وأخرى في حُوده
 ريثما تأتي إلى قص
 ر أبيها في بُنوده
 فتري في ردهة القصر
 ر أميراً في قُوده
 سباحاً في دمه من
 أثر الجرح بجيده
 حاسر الرأس يجر الس
 ساق جراً في حديه
 أسروه بعد أن فج
 جع في خير جنوده
 فإذا مروا به.. ألد
 قت على دامي جُوده
 نظرةً تنزل كالط
 طل على قلب عميده



(٦)

تملك حبه قلبي
 ففوق الدمع جفني
 ومن سلكه
 على در



وما ينفعه قُربي
إذا لم يُمَكِّنني

على فِكَّة

من الأسرِ



وأحبَّت «طارقاً» بل
قَيسُ من أولِ نَظَره
فَهِيَ من شُرفَتها ترُ
قُبُ في البُرجِ مَقَره
وهي في خلوها تُح
يبي مع الأنجمِ ذُكره
كأما ناجت أها
غمراً الإشفاقُ صدره
وتواري خلفَ رُقرا
ق؛ من الغيمِ بحَسره
كعداري الديرِ لا يم
لكن دُفعاً لضره
كيف تُفضي بهواها
إنها تخشى المَعَره
«أيها القسُّ الذي لم
يبنسَ في الأحقادِ بره
البنو اقيسُ تُدوي
والترانيمُ مسره
وملاكي .. في صلاةٍ
تملاً العينين عُبره

ليتها تبلغ مَنْ شا
طَرَهُ قَلْبِي أَسْرَهُ
أفلا تدعوهُ أَنْ يَـرُ
فَع (اللعذراء) «شُخْرَهُ»



(٧)

قضى في الأسر أياماً
كانَ اليومَ شهرُ
من الطولِ
بظلماءِ



ولا يقنتات إلا ما
يُـمـوَنُهُ الأَسْرُ
مِنَ الفولِ
مع الماءِ



ويمرّ اليومُ تلوَ الـ
يَوْمَ رَهْنًا بِشَكَاتِهِ
هي في فردوسها تَجُ
نني بخوفٍ ثممراته
والفتى عن عالم الفِرِ
دوس مشغولٌ بذاته
يبزغ النورُ عليه
سارحاً في ظُلماته
يائساً في غمرات السُ
سجنٍ حتّى من نجاته

فإذا اشتدَّ عليه الضُّرُّ
 — خَـغَطُ من جَـوَرِ عُدَاتِهِ
 عاذَ بالفُرْقَانِ يَسْتَنفُ
 — تَحُّ في لَمَّ شَتَاتِهِ
 قَالَتِ الْغَادَةُ: «مَا أُمُّ
 — عَن قَـوْمِي في أذَاتِهِ!
 أه! كم حـاولـتـم أن
 تفتنوه في صلاته
 هل رأيتم نورَ ما يُضُّ
 — مِرُّهُ في نَظَرَاتِهِ؟
 إنه يـؤمن بـالحـبِّ
 ب، ولكن في صفاته
 فدعوه لحياتي
 ودعوني لحياته»



(٨)

سلوا عن مهجتي خَبْرَهُ
 فإلم يَخْتَصُّ دُونِي
 بِإِحْسَاسِهِ
 وَأَلَامِهِ



دعوني أقتفي أثرَهُ
 وإلا أسعِدوني
 بِأَنْفَاسِهِ
 وَأَحْلَامِهِ



بَدَّدَتْ مُحْكَمَةَ التَّنْفِ
 — تَيْشِ أَمَالِ الْحَزِينَةِ

ليس يُرضيهم سوى أن
 يُنكرَ المسلمُ دينه
 وأبى طارقُ أن يُنكرَ
 بسَّ بالشكِّ يقينه
 إذا لاح صليبُ
 مرَّعَ الجبَّههةً دونه؟
 هو لن يُشركَ بأحدٍ
 لهُ ولو ذاق مَنونهُ
 وقضاها ليلَةً لا
 يطرُق النومُ جُفونهُ
 في اجتلاء البدرِ حتى
 كاد الأيَّستبينهُ
 شاخصاً.. في ومضاتِ الأ
 بَرُقِ يجتاز سِنينهُ
 سَنَةً يبسم منها
 سَنَةً تُندي جَبينهُ
 إنه يذكُرهُها إلا
 نَ، ولا ينسى قُتونهُ
 عندما شارف قُرصُ الأ
 بَدْرِ أسوارَ المدينهُ
 كيف ناجاه من الخنْدِ
 دَقَ طيفُ بسكِينهُ

(٩)

تَخَلَّلَ سَجَنَهُ نورُ
 أَخِيطُ الفجرِ ذلكُ
 على الأفقِ
 كإيمانهُ

وَحَدِّقْ وَهُوَ مَذْمُورٌ
وَوَجْهُهُ اللَّيْلُ حَالِكٌ
إِلَى الشَّرْقِ
بِإِنْسَانِهِ



يَا لَهُ صَوْتاً رَقِيقاً
ذَابَ فِي أُذُنِيهِ طَلَأٌ
قَبْلَ أَنْ يِدْهَمَهُ الْفَجْرُ
رُ، فَلَا يَمْلِكُ حَلَأٌ
إِنَّهُ يَدْعُوهُ أَنْ يَلُ
تَنْقَطِ الْحَبْلُ مُطَلَأٌ
فَإِذَا أُوثِقَ مِنْ
نَفْسِهِ رَبَّطَ تَدَلَى
وَلَوَى طَارِقُ بِالْحَبِ
لِ عَلَى الْكُفِّ وَتَلَأٌ
فَرَأَهُ مُحْكَمَ الشَّدِ
دِ، فَسَمَى وَاسْتَقْلَأَ
كَلِمًا أَمْسَكَ جُزْءاً
مِنْهُ عَنِ جُزْءِ تَخَلَى
هَالَهُ الْبَعْدُ فِغْضِ الطُّ
طَرَفًا خَوْفًا أَنْ يَزَلَأَ
وَتَقَرَّى حَائِمًا بَالِ
لَمَسَ لِسُوطِ مَحَلَأَ
رِيثًا مَا أَثْبَتَ خُقَيْ
هَ عَلَى الْأَرْضِ وَحَلَأَ
ثُمَّ أَلْقَى طَرَفَهُ حَيْ
ثُ السُّدْجَى أَعْمَقُ ظَلَأَ

فإذا طيفُ فتاةٍ
تبهر العينين دلاً

(١٠)

ظفرتُ بمُنَيَّتي لَمَّا
رمى بالحبلِ جَنُوبًا
على حَيْرَةٍ
وحاذاني

فسمي لي بما سمي
وفاض القلبُ حُبًّا
مع النظرة
إلى الثاني

ودنا منها بوجهٍ
باسمٍ.. يُخفي ذهوله
شاعراً في القلبِ مَعْنَى
عاجزاً عن أن يقوله
فراها في لباسٍ
قَد الطاووس طوله
آية الطهر إذا جرَّ
سرت على الأرض ذيوله
والتقت بالنظرة الأخذ
رَى فلم تُخطئ مِيوله
ذكرته ثانياً في الط
طيب أحلام الطفوله
ورأت فيه فتى مَهْ
هد للمجد سبيله

تتمنى الغيد لو تظ
فقر منه بوسيله
اصيري! ألهمت بأقيد
س من الصبر جميله
لا يدوم الوصل هذا
غير ساعات قليله
فلسان الفجر في الشر
ق، يُمنئك البطله
كاد أن يطغى على اللئ
ل سناها في زيله



(١١)

حياتي فيض كفيك
فلا أدري بما اذا
أجازيك
أفيديني



فؤداي بين عطفيك
وحسبي بعض هذا
بناديك
إلى حين



قال: «سبحان الذي زك
كى وجودي بحنانك
بعهد أن نقت الأمر
ن، فلم أحفل بذك
ليت شعري إن من كا
نت على رفعة شانك

كَيْفَ تُنْسَى يَدُهَا الْبَيْدُ
— ضَاءً.. مَلَأَى بِجُـمَانِكَ
فَاسْمَحِي بِالْقَيْسِ! أَنْ أَدَّ
— ثُمَّ أَطْرَافَ بِنَانِكَ
بَقِيَتْ بَعْدَكَ - يَا طَا
رِقْ - حَيْرِي فِي مَكَانِكَ
هَلْ سَأَلْتَ الْأُفُقَ عَنْهَا
إِذْ تَوَارَتْ عَنْ عِيَانِكَ
كَلَّمَا أَبْعَدْتَ عَنْهَا اضْ
طَرَبْتُ مِثْلَ عِنَانِكَ
إِنَّهَا تَذَكَّرُ بِالْحُسْنِ
— نَنَى عَلَى دُرِّ بِيَانِكَ
فُبُلَّةٌ أَوْدَعَتْ فِيهَا
شَاكِرًا كُلَّ امْتِنَانِكَ
وَاسْتَفَاضَ الصَّبْحُ ضَوْءًا
وَاخْتَفَى صَوْتُ حِصَانِكَ
وَهِيَ تَدْعُو: «يَا إِلَهَ الدُّ
— حُبِّ، خُذْهُ فِي أَمَانِكَ!»

من ديوان: «قبلتان»، ١٩٥١

ذلك الصوت!!

«إليها .. قبل أن أراها»

يا ابنة الحسن!

... قد عشقتك صوتاً

يتهادى على جناح الأثير

أنا أصغي إليك في كِلَّةِ اللَّيْلِ

ل، كَأني في عالمٍ مسحور

ليت شعري أضحك البدرُ لي، أم

أنا في وَسْطِ حفلةٍ للطيور

لم أكن قبلَ ذلك الصوتِ أدري

أَنَّ في الأرضِ كلِّ هذا السرور

ما وعتُ من لحونك الأذنُ لحناً

إنَّما غِبتُ.. غِبتُ بين الزهور

يا طريدَ الجنانِ! عرِّجْ على الخلد

د، فما ذاك غيرُ صوتِ البشير

هُوَ كالروحِ .. في ضلوعي منه

خفقةٌ بلَّلتُ أرقَّ شعوري

هُوَ كالورد.. ما نشقتُ بأنفي

ريحه، بل لمستُه في ضميري

هُوَ كالصيفِ... ليله مرّاً بالأند

جُم، يزهو في قلبي المحرور

هُوَ كَالنَّجْمِ... مَا تَصَوَّرْتُ إِلَّا
أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ بِاتِّسَامِيرِي
كُنْتُ فِي ظِلْمَةٍ، أَعِيشُ لَذِكْرِي أَلْ
حُسْنٍ، حَتَّى حَظَيْتُ مِنْهُ بِنُورِ
هُوَ دُنْيَا مِنَ الشُّعُورِ لِقَلْبِي
يَا لَدُنْيَا - فِي وَحْدَتِي - مِنْ شُعُورِ

دلهي الجديدة ، ٢٧ من أبريل ، ١٩٤٥

من ديوان : «شموع» ، ١٩٥٦

دمية

«إليها.. بعد رؤيتها»

يا ابنة الحسن!

.... عشت أهواك لحناً

فإذا أنتِ فتنة للرائي!

نهلت من جمالك العين ما كا

نت به الأذن - قبلها - في ارتواء

كنت أجري مع الخيال، إلى أن

لُحِتْ، فانتهيت من خيالي

روعة الحسن في تأمله الخا

لب أضعاف روعة الإصغاء

أومض الحب في سماء وجودي

فإذا الكون ضاحك الأرجاء

لا تميلي بناظريك دلالاً

أمهليني تنفس الصعداء

درة أنت - يا لحسنك - في جيد

د - الليالي الحسان ذات بهاء

وردة أنت - يا لطهرك - رقت

حمرة في خميلة الشعراء

نجمة أنت - يا لحظك - إذ يُع

لن معنى الحقيقة الغراء

حَيَّةُ أَنْتِ - يَا لَسْحَرِكِ - فِي الْإِغْدِ
رَاءِ، إِذْ تَنْهَدِينَ بِاسْتِحْيَاءِ
اعْذِرِينِي إِذَا تَلَمَّسْتُ قَلْبِي
بَيْنَ تَلْكَ الضَّفَائِرِ السُّودَاءِ
دَمِيَّةَ الْهَنْدِ! أَبْدَعْتُكَ يَدُ الْخَلِّ
مَلَقَ كِي تُعْبِدِي، فَهَكَ.. غِنَائِي

دلهي الجديدة، ٥ من مايو، ١٩٤٥

من ديوان: «شموع»، ١٩٥٦

ملاكي(*)

سلوا النور، هل بثّ عن أمّها

وعنها حديثاً، رواه القمر..

رأتهّا تهشّ له ضاحكاً

فجاءت تَنزفٌ إليّ الخبيرُ

وتهتف بي : «من رأى كابنتي؟

بكاء على ضحكٍ مُستتر

حوى ثغرها - ما ترى - دُرّتين

وفي وجنتيها تُضيء الأخر!»



وأقبلتُ أنظر في المهد «هنداً»

ومن دونه أمُّها تنتظر

فما هزّها من معاني الخلود

كبرعمها في الهوى يتنّغر

تبعّم من طربٍ كالغزال

وكالطير في خفةٍ ما تقرر

كأن يديها - وما همّتا

بشيءٍ - تحوشان بعض الأكر

أو أنّ على قدميها يداً

تُدغدغ، فهيّ تزيح الأثر

وتضحك .. يا مَنْ أحسّ الورود

على ثغره هامساتٍ بسير

(١) إلى روح ابنتي الصغيرة.

وما جاوز الضحكُ همساً، بلى
صداه يرنّ كجسّ الوتر
وتبكي.. فأشبهها بالزهور
إذا المزنُ خَضَلها بالدُرر
وفي مُقلتيها تخال السماء
بكامل أنجمها تزهّر



فما غمرتُ حَبْنَا نشوةً
على الحسن، تحت شعاع القمر
كجلوة «هند» وقد أقبلتُ
علينا، تَصَعْدُ فينا النظر
فتطفو على ثغرها بسمه
نوداً معاً لثمها، لو قدر
وكم بذرتُ أمها قُبلةً
فمِلتُ بفيّ لقطف الثمر



ملاكي! حوئك يدا جَنَّتِي
وبينكما أنا أَحْظَى البشر!

عيد الأضحى، ١٩٤٥

من ديوان: «شموع»، ١٩٥٦



ليلاي (*)

«بورك للعروس في زفافها

كالسوسن الأبيض في عفافها»

ليلاي! بالأمس كنتِ
كأنمنا «هي» أنتِ
فتاة حُلَمي... التي قد
تمتُّلتُ لي.. بِـنـتـي
كم ليلةٍ عدتُ فيها
في وحنُدتي، فأعـنـت
يطولُ منكِ انتِظـارُ
فإن سـكـنـتُ سـكـنـت
وما رأيـتُكِ يـومـاً
على الحـضـور مـنـتـت
حـتـى إذا لاح صـبـحُ
سـبـقتُ لي الصُّبـحَ أنتِ
فيالها سـبـحـاتِ
تمـرُّبي، مـنـذِـبـتِ
ذـكـراكِ فيـها كـنـجـمِ
يـضـيءُ لي حـيـثُ كـنـتِ
بوركتِ ليلاي عـرُسا!
وطبتِ بالغـد نـفُسا!



(١) بمناسبة زفافها في ١٧ من ربيع الأول ١٣٧٠ هـ.

وكيف أنسكِ بننتي!
إذ كنتِ في المهد طفلة
ترعاكِ عيني بحبٍ
أرى لأمكِ من ثمله
وكلُّ دنياكِ زُندُ
وكلُّ زادكِ قُبُله
نُقُوبينِ لِحَاطِظاً
وما كالحظكِ مُقُله
نَبِئتُني... وهواها
يظلُّ يفعلُ فِعُله
ولا كننومك.. لا نُسُ
تَقْرُحُ حتى تُظله
وتألمين فنخشي
عاليك من كل غفله
وتنطقين فأهفو
كأنما الكونُ حفله
بُوركتِ ليلاي عرسا!
وطببتِ بالغد نفسا!



ولستُ أنسكِ بننتي!
إذ كنتِ بعدُ غريرة
حتى كتبتِ من العُمة
ر - باحتبائكِ - سيره
تألهين في «العش» شَدُوا
كأنك العُصفوره
عاليك ثوبٌ طويلٌ
وفي يمينك صُوره

تُهَيِّئِينَ لَهَا كُلَّ
لِجَاوَةٍ مِّنْظَوْرِهِ
فَتَنْتَرِينَ عَلَيْهَا
مَعَ الصَّبَاحِ زَهْوَرِهِ
كَمْ سَرَرْتَنِي أَنْ بِنَنْتِي
«كَعِرْسِهَا» مَسْرُورِهِ
أَلْفِي إِذَا غَابَ بَدْرُ
عَلَى مُحَيِّكَ نُورِهِ
بَوْرَكَتِ لَيْلَايَ عَرَسَا !
وَطَبْتِ بِالْغَدِ نَفْسَا !

وَلَسْتُ أَنْسَاكَ بِنَنْتِي
إِذْ عُدْتِ فِي أَحْوَاتِكَ
مَا بَيْنَ صُغْرِي وَكُبْرِي
وَكأَنَّ هُنَّ كذَاتِكَ
لَهُنَّ مِنْكَ جَمِيعاً
مَعْنَى الْحَيَا مِنْ حَيَاتِكَ
تُلَقِّنِينَ «تُرِيَا»
و«مِي» حُسْنَ التَّفَاتِكَ
كَأَنَّ مَا كُلُّ شَيْعِرِي
عَلَيْهِ رَمَزُ صِفَاتِكَ
فَإِنْ بَسَسْتِ لَأْمٌ
جَزْتِكِ عَنِ بَسَمَاتِكَ
بِمَا يَرُدُّ لَتَغْرِي
- أَحْبَبُهُ - قَسَمَاتِكَ

حتى ليُفعمَ قـالبي
ما رقّ من نـفـحاتك
بوركت ليلاي عرسا !
وطبت بالغد نفسا !



ولست أنسك بنـتي
إذ أنت ذات نـقـاب
نـخـايـين على مـد
رج الـهـدى والـصـواب
مـعـنـيـةً بشـؤون
مشغوفةً بـكتاب
تـدرّسـين صـبايـا
بلـحـنـك المـسـتـطـاب
وهنّ مـنـك ليـنـشـق
نـنـفـحـةً من شـبـابي
إذ كنتـ - مـثـلـك - أـعـنـي
بالـنـشـء ، رـغـم صـعـابي !
حتّى إذا عـدت ليـبـي
تـعـدت ليـ .. ولمـا بي ..
ولـمـا بـس تـكـوى
لـحـقـةً أو خـطـاب
بوركت ليلاي عرسا !
وطبت بالغد نفسا !



وأمس .. ليـلاي .. أمس
جـاـيت في ثـوب عـرس